جرير من شعره

للدكتور مصطفى الصاوى الجوينى

مقـــدمة :

يهتز المنهج فى يد كثير من دارسى الأدب ؛ فهم يعتمدون السرد التاريخى يلفقون معه شواهد مكرورة ينقلها ثان عن أول . ولا يلفتهم أحيانا أن مضمون النصوص قد يناقض منقولهم التاريخى . وهم فى كل حين غافلون عن أن الأدب شاءو أو أبوا نبت مجتمع وصورة بيئة وزمان محدودين ، ونبض فنان متفرد ، هذا التشابك والتعقيد فى بيئة الأدب الموصول بمجتمع عصره وفنانه هو ما يقعد الدارسين عن تناوله .

وهنا محاولة تقصد الى النص الأدبى لجرير ترى فيه مجتمع عصره القبلى وان سماه التاريخ عصر الدولة الأموية . ولئن كان رجال السلطان يستنصرون بالدين فقد كان ثمت صراع مضطرم بين مثل الاسلام والجاهلية ينفضه شعر الهجاء يقذف بالأعراض ويعرض المفاخر . ويضعف أواصر المجتمع الذى كان ينبغى له التماسك . والسلطان من وراء ذلك يحرش للهراش ملوحا بالمال قد سال سيله لديه ، ويعتمد الحاكم السيف للقهر فيخفت الرأى السياسى ويعود المديح ملقا ونفاقا مفضوحا مبتذل المعانى والأخيلة وترى المعنى الجاهلى فى النص الأدبى غلفته قشرة رقيقة من سلاسة التعبير الاسلامى أو الاحالة الى معنى قرآنى أو قصص قرآنى .

واذا كان جرير قد نبغ فى هجائه فهنا تكمن قوته الفنية . واذا كان حاكم العصر يسخر قوى مجتمعه لصالحه فما على الشاعر ضعيف الرأى السياسى الا أن يسخر قواه الفنية أيضا لصالحه فى مجتمع أنانى ... فردى ... ومع ذلك فأفراده لهم وجدان يحب ويكره ، يبكى ويفرح ، ينتصر وينهزم ، وأوتار الشعر تنغم هذا كله .

اذن نحن نرصد سمات عامة لشعراء العصر نقع على الواقع الموضوعى للعصر ، وهناك بعدئذ سمات عامة فى شعر الشعراء تكشف عن الذوق الأدبى العام المرتضى ، وضمن ذلك ثالثا سمات أدبية عامة هى من موروث الدرس أو المتلقين . ثم أخيرا سمات العبقـــرية الفنية المتفردة ، الذاتية ، الأصـــيلة . منهج شاق ولكنه أصيل ، ونحن بعد فى بساطة نستنطق نص الشاعر شخصه وعصره ومصره .

نشـــأته وأسرته :

شاعرنا هو جرير بن عطية بن الخطفى ويقال انه لُقّب الخطفى لقوله :

يرفعن لليـــل اذا ما أسدفا أعناق جِنّان وهاماً رُجّفا
وعُنُقا بعـد الكلال خيطفا

وكنيته أبو حرزة وهو من بنى كليب بن يربوع فرع من تميم من مضر . وُلِدَ لسبعة أشهر فعيّره الفرزدق ذلك فقال :

وأنت ابن صفرى لم تتم شهورها

وتاريخ ميلاد الشاعر فيه اختلاف فابن الجوزى يقول ان جريرا توفى عام احدى عشرة ومائة (سنة ١١١ هـ)[1] وهى نفس السنة التى توفى فيها الفرزدق ويقول ابن خلكان ان وفاة الفرزدق كانت عام عشرة ومائة (سنة ١١٠ هـ) [2] قبل وفاة جرير بأربعين يوما ويقول آخـــرون بل بثمانين يوما وكذلك يؤرخ العسكرى بهذا التاريخ وفاة الفرزدق ويقول آخرون بل وفاة الفرزدق كانت سنة اثنتى عشر ومائة (سنة ١١٢ هـ) ، وتقول جماعة بل عام أربع عشرة ومائة (سنة ١١٤ هـ) ، هذا ويقول ابن قتيبة وابن خلكان ان جريرا عمّر نيفا وثمانين سنة [3] . فتبعا لقول صاحب الأغانى أن جريرا توفى بعد الفرزدق بعام تكون وفاة جرير قد وقعت فى احدى السنوات التالية : ١١١ هـ ، ١١٢ هـ ، ١١٣ هـ ، ١١٥ هـ ، هذا مضاف" اليه قول ابن خلكان أن وفاة جرير كانت عام عشر ومائة .

---

(١) الوفيات جـ ١ ص ١٨٢
(٢) الوفيات جـ ٣ ص ١٤٣
(٣) ص ١٧٩ الشعر والشعراء لناشره مصطفى السقا . وابن خلكان فى الوفيات ص ١٨٢ جـ ١

واذن فتاريخ جرير ينحصر فى الأعوام من عشر ومائة (١١٠ هـ) الى خمس عشرة ومائة (١١٥ هـ) لا يتعدى ذلك بحال ويكون ميلاد الشاعر هو واحد من الأعوام من أربع وعشرين (٢٤ هـ) الى (٢٩ هـ) تسع وعشرين لا يتعدى ذلك بحال .

ويتفق الرواة على أن أم جرير هى أم قيس مُعَيْد من بنى كليب وأن أباه عطية « شيخ دميم رثة الهيئة » فى الطبقة الوسطى من قومه . يقول الفرزدق معيرا جريرا بحطة أبيه :

فَقِدْ ما كان عيش أبيك مـراً يعيش بمـا تعيش به الكـلاب

أما جده الخطفى فكان « ذا ابل ومال فلما ولد جرير لعطية كان ينحله من ابله وماله فولد للخطفى صبية فرجع فيما كان نحل جريرا فقال جرير [٤] :

ألا حيى رهبى ثم حيى المطاليـا فقد كان مأنوسا فأصـبح خاليا
فلا عهد الا أن تذكرَ أو ترى ثماما حَوَالَىْ منصب الخيم باليا
اذا ما أراد الحـى أن يتزايلوا وحنَّت جمالٌ الحىِّ حنَّت جماليا
وانى لعفُّ الفقـر مشترك الغنى سريعٌ اذا لم أرض دارى احتماليا
وانى لمعـزور أُعلَّل بالمـنى ليـالى أرجو أنَّ مالك ماليـا
وليست لسيفى فى العظام بقيـة وللسيف أشوى وقعة من لسانيا[٥]

وأما اخوة جرير فهما اثنان : عمرو وكان أكبر من جرير وكان يقارضه الشعر وأبو الورد وكان يحسد جريرا ، والظاهر أن جريرا لم يكن معهما على وفاق فأبو الفرج يحدثنا أنه ذهبت لجـرير ابل فشمت به أبو الورد فقال له جرير :

أبا الورد أبقى الله منهـا بقيـة كَنتْ كل لوام خذول وحاسد[٦]

---

(٤) الأغانى جـ ٨ ص ٨٨
(٥) الديوان ص ٦٠١
(٦) الأغانى جـ ٨ ص ٤٩

وأما عمرو فهو الذى يقول له جرير :

وعمرو قد كرهت عتاب عمرو ... وقد كثُر المعايب والذنوب
وقد صَدعتْ صخرة من رماكم ... وقد يُرْمى بى الحجر الصليبُ
وقد قطع الحديد فلا تساروا ... فِرِنْدٌ لا يُفلُّ ولا يذوبُ (٧)

ولما ماتا رثاهما بالبيتين :

خليلىَّ كم من زفْرة قد رددتُها ... ومن ظلمة وارت علىَّ ضُحى جمرا
اذا ما دعا قومٌ علىَّ أخاهُمُ ... دعوت فلم أسمع حكيما ولا عمرا (٨)

ونعرف من أزواجه أُمامة وهى التى وهب الحجاجُ جريرا فيزعم الرواة أن جريرا حين اتصل بالحجاج أول ما اتصل قال له الحجاج : « بلغنى أنك ذو بديهة فقُلْ فى هذه الجارية (الجارية قائمة على رأسه) فقال جرير مالى أن أقول فيها حتى أتأملها ومالى أن أتأمل جارية الأمير فقال : بلى فتأمَّلْها واسألها فقال لها : ما اسمُك يا جارية فأمسكت . فقال لها الحجاج : خبِّريه بالخناء فقالت : أُمامة ! فقال جرير :

ودِّعْ أُمامة حان منك رحيلُ ... انَّ الوَداع لمنْ تُحِبُّ قليلُ
مثلَ الكثيب تسايلت أعطافه ... فالريحُ تَجْبُر متنَه وتهيلُ
هذى القلوب صواديا تَيْمنها ... وأرى الشفاءَ وما اليه سبيلُ

فقال له الحجاج : قد جعل الله لك السبيل اليها خذها هى لك ، فضرب يده الى يدها فتسنعت عليه فقال :

ان كان طِبُّكُمُ الدلالُ فانه ... حَسَنٌ دلالكِ يا أُمامَ جميلُ

فاستضحك الحجاج وأمر بتجهيزها معه الى اليمامة وخُيِّرتْ (أى المبرَّد) أنها كانت من أهل الرى وكان اخوتها أحرارا فاتبعوه فأعطوه بها حتى بلغوا عشرين ألفا فلم يفعل ففى ذلك يقول :

اذا عَرَضوا عشرين ألفا تعرَّضت ... لأمٍّ حكيم حاجة هى ما هيا
لقد زِدْتِ أهلَ الرىِّ عندى مودة ... وحبَّبتِ أضعافا الىَّ المواليا (٩)

---

(٧) الأغانى جـ ٨ ص ٤٩
(٨) الديوان ص ٢٢٢
(٩) الكامل للمبرد جـ ١ ص ٣١٢

ومن أزواجه زرعة الديلمية وخالدة بنت سعد وهى التى رثاها بقصيدته :

لولا الحيـــاء لعادنى اســـتعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار (١٠) .

وكان له من الولد عشرة ــ كما يقول ابن قتيبة ــ ثمانية ذكور وأنثيين .

أكبرهم حزرة وأمه خالدة ولحزرة هذا يقول جرير ناصحا :

يا حَزْرَ أشـــبِهْ منطقى وأجْلاد وكَرَيانى الأمر بعـــد الايراد
وعَدْوَتى فى أولِ الجمع العـــادْ وحَسَبى عـــند بقـــايا الأزوادْ
وحُبىَ الضيفَ الى جَنْبِ الزاد (١١)

ومن ولده نوح وبلال وكان أفضلهم وأشعرهم ويكنى أبا زافر وأمهما زرعة الديلمية . ولجرير مدحة فى بلال يقول :

انَّ بِلالا لم تشْـــنه أمُّـــهْ يُفرِّجُ الأمرَ ولا يُغَمُّـــهْ
يشفى الصـــداعَ ريحا وشمـــه لم يتناسَبْ خالُه وعَمُّـــهْ
كأن ريح المســـكِ مُستَحمُّه ويذهب الهمـــومَ عنى ضمُّـــه
يُمضى الأمور وهو سام همُّهْ ما ينبغى للمســـلمين ذمـــه
بحرٌ بحـــور واســـعٌ مَجَمُّهْ فنفسه نفسى وسمّى سَمُّه (١٢)

ومن ولده أيضا عكرمة وكان شاعرا وحجناء(١٣) وسوادة الذى ترثى بالشام ورثاه بأبيات منها :

قالوا نصيبك من أجر فقلتُ لهم مَنْ للعرين اذا فارقتُ أشبالى
لكن سوادةُ يجلو مُقلتى لَحِمٌ باز يصرصر فوق الرقب العالى(١٤)

وبقى ولدان لا نعرفهما ، وأما بناته فزينب وأمها أمامة وكان لها ابن أخ ذو ابل يُقال له عصيدة لقصر فى يده فما زالت بزوجها حتى زوج ابنته له فعتب جرير عليه فقال :

وغرَّتنـــا أُمامة فافتحلنـــا عصـــيدة اذ تنخلت الفحـــول
اذا ما كان فحلُك فحل ســـوء خلجت النساء أو لؤم الفصـــيل

---

(١٠) الديوان ص ١٩٩
(١١) الديوان ص ١٣٩
(١٢) الديوان ص ٥٣٣
(١٣) الأغانى جـ ٨ ص ٧٨
(١٤) الديوان ص ٤٣٠

فى ذلك جرير :

وابنته الثانية الرَّبداء وهى التى خطبها ناس" من كليب فكرهتهم فقال

يَضِجُّ ربداءُ من الخِطَّابِ ... مِنْ قُطَرِيِّينَ ومن ضِبابِ
ومن أبى الدعجاء كالصُّؤابِ ... ومن مجيب فاتح العيابِ (١٥)

وكان مقام الشاعر فى قرية أثيفية أو أثيفيات أو أثيفات أو ذات الأثافى وكلها واحد وكانت لبنى كليب بن يربوع بالوشم من أرض اليمامة وكان أكثرها لولد جرير — كما يقول ياقوت (١٦) — وأقام مدة بالمرِّيوت فلما لجَّ الهجاء بينه وبين الفرزدق أرسل اليه بنويربوع « انك تقيم بالمرِّيوت ليس أحد يروى عنك والفرزدق بالعراق وقد ملأها عليك منذ سبع حجج » . فنزل البصرة وأقام فيها لينتقل منها الى حديث الخلفاء والأمراء والولاة ينتجعهم مادحا .

اتصال جرير بالأمويين

لم يُقِمْ مُلْكُ الأمويين وسلطانهم على أصول دينية كالتى قامت عليها احزاب الشيعة والموالى والخوارج وحتى الزبيرية بل قام على أصول دنيوية فالأمويون يزعمون أنهم أولياء دم عثمان المقتول ظلما ثم هم أصلح الناس للحكم لأن الكثرة تؤيدهم ولهم مجدهم الذى يضارع مجد بنى هاشم ثم ان نتيجة التحكيم فى أعقاب صفين كانت فى جانبهم وهم يزعمون أنهم وارثو النبى فهم أحق الناس فى مُلْكِ العالم الاسلامى فهم اذن طلاب مُلْكٍ وهم سياسيون يرون غايتهم كل وسيلة جعلوا من الخلافة ملكا عضوضا واحتفظوا من الخلافة بمظهرها فحسب فحرصوا على البيعة ليقال ان الحكم شورى وهو وراثة ثم اعتمدوا فى توطيد ملكهم على قوة السيف والمال والعقل فجنح الناس اليهم طمعا فى مالهم أو خوفا من بأسهم . هذا الأسلوب النفعى الذى اتبعه الأمويون فى دنياهم هو الأسلوب عينه الذى جاراه الشعراء فى مدحهم للخلفاء فنرى شاعرا كجرير انما كل همه النفع من الخلفاء ولا شىء غير النفع فهو يمدح الأمويين غير مُلْقٍ بالا لتأييد حقهم أو مناقشة أعدائهم فى أثناء العراك وانما هو يكتفى بشتم الأعداء اذ ينكسرون وبمدح الأمويين اذ ينتصرون . هذا

(١٥) الديوان ص ٥٥
(١٦) معجم البلدان لياقوت جـ ١ ص ١١١

المذهب الذى ذهب اليه جرير هو عينه السبيل الذى كانت تسلكه قبيلته تميم فقد كانت قيس ضد الدولة وكانت تغلب وكلب مع الدولة وأما تميم فكانت الحرية والمنفعة الأقليمية هى مذهبها السياسى ولم تكن القبيلة تميم بالمتحدة سياسيا ولا عصبيا فقد كان منها ثوار على عثمان وفى وقعة الجمل وقف تميمو البصرة وقفة الحياد واشترك تميميو الكوفة فى مصرع الحسين وقد كان منهم من آزر عليا فى صفين . ثم كانت تميم تعادى قيسا وخاصة فى مقتل عبد الله بن خازم وقتيبة بن مسلم الباهلى ولكنا نرى زعيمى النقائض وهما من تميم يقف أحدهما وهو الفرزدق مشيدا بمفاخر قومه ومناضلا عنهم اليمن وقيسا ومحاميا أيضا عن تغلب بينما يقف الآخر وهو جرير مع قيس على تغلب ليشيد بمآثر قيس فى وجه صاحبه ويفخر برهطه يربوع دون رهط الفرزدق دارم فالسياسة عند جرير ما هى الا وسيلة لمنفعته الشخصية أولا ثم منفعة قبيلته شيئا كما سنرى .

(٣) على عتبة السلطان :

يزيد بن معاوية (٦٠ — ٦٣ هـ ، ٦٨٠ — ٦٨٣ م) :

يحدثنا أبو الفرج فى الأغانى أن أول اتصال لجرير بخليفة كان بيزيد بن معاوية ويظهر أن يزيد كان اختلف مع أبيه فى أمر من الأمور فعاتب أباه بشعر ذكره جرير فى كتاب جده الخطفى وأنحله جرير يزيد فنسبه يزيد الى نفسه ولم يكن شعر جريرا آنئذ قد شهر منه الأبيات :

ألا حبى رهبى ثم حبى المطاليا ... فقد كان مأنوسا فأصبح خاليا
فردى جِمالَ البين ثم تحمّلى ... فما لك فيهم من مُقام ولا ليا
وانى لمغرور أعلل بالمنى ... ليالى أرجو أن مالك ماليا..الخ(١٧)

فلما ولى يزيد الخلافة قدمه جرير فاستؤذن له مع الشعراء فأمر بزيد ألا يدخل عليه شاعر الا من عرف له شعرا فقال جرير قولوا له أنا القائل :

فردّى جمالَ البين ثم تحمّلى ... فمالكِ فيهم من مُقام ولا ليا

فأمر بادخاله فلما أنشده قال يزيد : لقد فارق أبى الدنيا وما يحسب الا أنى قائلها وأمر له بجائزة وكسوة وكانت أول جائزة أخذها من خليفة . ثم بشغل جرير بالنقائض حتى يرقى الخلافة عبد الملك بن مروان .

(١٧) البلدان ص ٦٠١

عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ ، ٧٠٥ — ٧١٥م) :

وفى عهد عبد الملك ينقطع جرير الى أخى الخليفة بشر بن مروان والى الكوفة وكان كما يقول المسعودى : « أديبا ظريفا يحب الشعر والسمر والسماع والمعاقرة [١٨] » وهو الذى هيج ما بين جرير والأخطل والفرزدق من نقائض وكان يحرش بعض الشعراء ببعض ثم يحدثنا الرواة أنه بعد أن خمدت فتنة ابن الزبير دخل جرير واسط خفية ولجأ الى عنبسة بن سعيد بن العاص أحد الأشراف الأمويين ليشفع له عند الحجاج وكان الحجاج قد ولى العراق بعد بشر بن مروان سنة ٧٥ هـ ولم يكن أحد يدخل واسط الا باذنه فقبل الحجاج شفاعة عنبسة وانقطع جرير للحجاج وتعداد مدائحه . وفى رواية أخرى يحكيها أبو الفرج أن جريرا أتى صهر الحجاج وابن عمه الحكم فمدحه بالأبيات :

أقبلن من جنبى قتاخ واضم ... على قلاص مثل خيطان انسلم
قد طويت بطونها على الأدم ... بعد انفضاج البدن واللحم الزيم
اذا قطعن علما بدا علم ... فهن بحثا كمضلات الخدم
حتى تناهين الى باب الحكم ... خليفة الحجاج غير المتهم

فى ضئضىء المجد وبؤبؤ الكرم [١٩]

فأوصله الحكم الى الحجاج الذى أكرمه وكساه « جبة صبرية » [٢٠] . ولقد كان اتصال جرير بالحجاج الخطوة الأولى فى سبيل السياسة اذ اتخذه الحجاج شاعره فحرصت عليه قيس منذ ذلك الحين وأكرمته وضمته اليها وان لم تستطع أن تفصله تماما عن قبيلته تميم ولقد كان الفرزدق يعيره ذلك وأنه يبيع أعراض قومه بعرض تافه . يقول الفرزدق :

فما أنت من قيس فتنبح دونها ... ولا من تميم فى الروس الأعاظم
وانك اذ تهجو تميما وترتشى ... تبابين قيس أو سحوق العمائم
كمهريق ماء بالفلاة وغره ... سراب أثارته رياح السمائم [٢١]

---

(١٨) ص ٣٠ هامش جـ ٧ للكامل لابن الأثير .
(١٩) الديوان ص ٥٢٠
(٢٠) الأغانى جـ ٨ ص ١٢ ، ٧٥
(٢١) ديوان الفرزدق ص ٨٥٦

ويقول له فى القصيدة عينها :

أنا ابن تميم والمحامى وراءها ... اذا أسلم الجانى ذمار المحارم
اذا ماوجوه الناس سالت جباهها ... من العرق المعبوط تحت العمائم
أبى من اذا قيل من أنت معتز ... اذا قيل ممن قوم هذا المراجم
أدرسان قيس لا أبا لك تشترى ... بأعراض قوم هم بناة المكارم (٢٢)

على أية حال فقد مدح جرير الحجاج وأشاد ببلائه فى خدمة عبد الملك وملكه وأنه سار سيرة الرجل العالى العفيف يأبى الرشوة وأنه سيف الخليفة ذو البطش وأنه دين صلحت به أمور الدنيا والدين . يقول مثلا :

اذا شعر الخليفة نار حرب ... رأى الحجاج أثقبها شهابا
ترى نصر الامام عليك حقا ... اذا لبسوا بدينهم ارتيابا
تشذ فلا تكذب يوم زحف ... اذا الغمرات زعزعت العقابا
عفاريت العراق شفيت منهم ... فأمسوا خاضعين لك الرقابا
وقالوا لن يجامعنا أمير ... أقام الحد واتبع الكتابا
اذا أخذوا وكيدهم ضعيف ... بباب يمكرون فتحت بابا (٢٣)

ويقول أيضا فى احدى نقائضه مؤكدا قوله أن نصرة الأمويين انما هى بالحجاج وقوة أيده :

أرى الطير بالحجاج تجرى أيامنا ... لكم يا أمير المؤمنين وأسعدا
رجعت لبيت الله عهد نبيه ... وأصلحت ماكان الخبيان أفسدا
فما مخدر ورد بخفان زأره ... الى القرن زجر الزاجرين توردا
بأمضى من الحجاج فى الحرب مقدما ... اذا بعضهم هاب الخياض فعردا
تصدى صناديد العراق لوجهه ... وتضحى له غر الدهاقين سجدا (٢٤)

ويقول أيضا فى هذا المعنى الذى سنرى أنه يغيظ عبد الملك بعد :

ولولا أمير المؤمنين وأنه ... امام وعدل للبرية فاصل
وبسط يدالحجاج بالسيف لم يكن ... سبيل وجهاد واستبيح الحلائل (٢٥)

---

(٢٢) ديوان الفرزدق ص ٨٥٧
(٢٣) الديوان ص ١٧
(٢٤) الديوان ص ١٨٨
(٢٥) الديوان ص ٤٤٠

ويعرض جرير صورة للحجاج رجل القوة والبطش فى قصيدته :

هاج الهـوى لفؤادك المهتـاج فانظر بتوضيح باكر الأحداج [٢٦]

ويقول جرير لأهل العراق متملقا الحجاج وهو فى حماه :

دعوا الجبن يا أهل العراق فانما يباح ويشرى سبى من لا يناتل
لقد جـرد الحجاج بالحق سيفه لكم فاستقيموا لا يميلن مائل
فمايستوى داعى الضلالة والهدى ولا حجة الخصمين حق وباطل [٢٧]

ويبين عن فرق الناس من الحجاج :

وخافوك حتى القوم تنزو قلوبهم نزاء القطا التفت عليه الحبائـل
وما زلت حتى أسهلت من مخافة اليك اللواتى فى الشعوف العواقل [٢٨]

ويحدثنا الرواة أن جريرا قصد عبد الملك فى دمشق . فهل الذى أرسله الحجاج لأنه لما مدحه جرير بقصيدته :

قال له الحجاج : ان الطاقة تعجـز عن المكافأة ولكنى موفدك على أمير المؤمنين ؟ [٢٩] أم أن عبد الملك حسدو اليه الحجاج على شاعره فأرسل خفيه يأمره أن يبعث به اليه [٣٠] ؟ مهما يكن من شىء فأنا أميل الى أن عبد الملك قد حسد الحجاج على شاعره وسأناقش ذلك بعد . قصد جرير اذن دمشق ومعه محمد بن الحجاج موفدا من قبل أبيه ليوصى به عبد الملك كى يسمع له ويثيبه ولكن عبد الملك لم يأذن لجرير لأنه (لا يسمع من شعراء مضر ولا يأذن لهم لأنهم كانوا زبيرية ولكن محمدا يقول للخليفة (انه لم يكن ممن والى ابن الزبير ولا نصره بيده ولا لسانه) وألح محمد على الخليفة فى الرجاء كى يأذن لشفيع عبده فأذن له ولكنه حين دخل قال له عبد الملك : وما عساك تقول لنا بعد قولك فى الحجاج ! ألست القائل :

من سـد مطلع النفـاق عليكم أم من يصـول كصولة الحجاج
ان الله لم ينصرنى بالحجاج وانما نصر دينه وسيفه . أو لست القائل :
أم من يغار على النساء حفيظة اذ لا يثقن بغـيرة الأزواج

(٢٦) الديوان ص ٨٩
(٢٧) الديوان ص ٤٤٠
(٢٨) الديوان ص ٤٤٠
(٢٩) الديوان ص ٩٦
(٣٠) الأغانى جـ ٨ ص ٦٦

يا عاض كذا وكذا من أمه ! ثم طرده وبعد أيام ثلاث شفع له الثالثة محمد ابن الحجاج فقبل عبد الملك شفاعته وأذن لجرير فلما استأذنه فى الانشاد قال : لا تنشدنى الا فى الحجاج فأنت له خاصة ! وأراد جرير لينشد عبد الملك مديحه فيه فأبى الا أن ينشده قوله فى الحجاج فأنشده وخرج بغير جائزة فقال جرير لمحمد بن الحجاج : ان لم يسمع لى أمير المؤمنين ويثيبنى سقطت آخر الدهر ولن أبرح بابه حتى يأذن لى فى مديحه ومرة أخرى نرى محمد بن الحجاج ينبىء عبد الملك قول جرير ويلح عليه الحاحا مقبلا يده ورجله فأذن لجرير ولما استأذنه فى الانشاد أمسك عبد الملك فصاح بجرير محمد : أنشد ويحك ! فأنشد جرير عبد الملك قصيدته :

أتصحو بل فؤادك غير صاح عشية هم صحبك بالرواح [٣١]

ومما يدلنا على شدة غيظ عبد الملك من جرير وشدة حسده الحجاج على شاعره وأنه لم يكن ليسمع لمن ــ يحب ــ حين الانشاد ــ مما يدلنا على ذلك صياحه فيه : بل فؤادك يا ابن ...

واستمر جرير ينشد حتى بلغ البيت :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فارتاح عبد الملك وقال : من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت وكانت جائزة الشاعر مائة لقحة وثمانية من الرعاء وجامة من ذهب وذكر ذلك جرير فى مدحه له ليزيد بن عبد الملك قال :

أعطوا هنيدة يحدوها ثمانية ما فى عطائهم من" ولا سرف

فمثل هذه الجائزة ومثل هذا الادلال على الشاعر يبينان عن أمر كان عبدالملك بيته فى نفسه فهو يبغى مدح جرير ويحسد واليه الحجاج أن تقال فيه مدح كتلك التى غاظت عبد الملك وأنبأ بها جريرا وأما هذا الحرص من جانب الشاعر على مدح الخليفة فليس لنا من قول فيه الا أن الشاعر طمع فى جائزة الخليفة ورأى نفسه قريبا من أمل يداعب خيال كل شاعر فألح فى ألا يدع فرصة أتيحت له تفوته وقد أفلح .

---

(٣١) الديوان ص ٩٦

ولنا هنا وقفة خاصة عند قول عبد الملك (انه لا يسمع من شعراء مضر ولا يأذن لهم لأنهم كانوا زبيرية) فهل كان جرير زبيريا ؟ الواقع كما يبين من شعره أنه كان زبيرى الهوى وأن هواه لم يتعد فؤاده الى المحاجة الحارة الصريحة أو العمل وعلى كل حال فهذه الأبيات التى تبين عن زبيريته فيها تلميح فحسب وفرق بين تلميح وتصريح ثم نلاحظ أن قيسا — وهى التى ناضلت عن الزبير — آثرت جريرا وأكرمته ووقف وهو يناضل عنها الفرزدق ورهطه دارم ويناضل عنها تغلب قبيلة الأخطل وحرصت هى من جانبها على ارضائه بالأعطيات وازداد حرصها على ذلك منذ اتصل الشاعر بالحجاج — والحجاج كما نعلم قيسى وان كان يعيش لمصلحته وحدها . ملاحظة ثالثة وهىأن سكينة بنت الحسين وزوج مصعب بن الزبير كانت تعطف على جرير وتثيبه وتفضله من حيث المكانة الشعرية على الفرزدق [٣٢] لنحاول اذن البحث عن الأبيات التى يبين منها ميل جرير للزبيرية . أولا نرى أن جريرا يعير الفرزدق ورهطه بخفرهم ذمام جارهم الزبير ويكرر ذلك فى نقائضه كثيرا . يقول للفرزدق :

على غير السواء مدحت سعدا ... فزدهم ما استطعت من الثواب
هسو قتلوا الزبير فلم تنكر ... وعزوا رهط جعثن فى الخطاب [٣٣]

ويقول أيضا :

مجاشع قد أقروا كل فخرية ... لا من يعيبون بل فيهم العاب
قالت قريش وقد أبليتم خورا ... ليست لكم يا بنى رغوان ألباب
هلا منعتم من السعدى جاركم ... بالعرق يوم التقى باز وأضراب [٣٤]

ويقول :

فقرب للغياث مجاشعيا ... اذا ما فاش وانتفخ الوريد
فما منعوا الثغور كما منعنا ... ولا ذادوا الخميس كما نزود
أجيران الزبير عززتموه ... كأنكم الدلادل والقهود [٣٥]

---

(٣٢) الأغانى جـ ٨ ص ٣٨
(٣٣) الديوان ص ٣٠
(٣٤) الديوان ص ٤٧
(٣٥) الديوان ص ١٦٣

ويقول :

وقيس يا فـــرزدق لو أجاروا ... بنى العوام ما افتضـح الجوار
اذا لحمى فـوارس غـير ميـل ... اذا ما امتدت فى الرهج الغبار
وكروا كل مقربة سـبوح ... وطرف فى حـواليه اضطرار
غـدرتم بالزبـير وما وفـيتم ... فدادينا يبيت لهـا خـوار
فما رضـيت بذمتكم قـريش ... وما بعـد الزبيرية اغترار (٣٦)

ويقول كذلك للفرزدق :

قتل الزبير وأنت عاقد جـوة ... قبحـا لجبوتك التى لم تحـلل
وافاك غدرك بالزبير على منىً ... ومجر جعثنكم بذات الحرمل (٣٧)

ثم يقول بعد أبيات من نفس النقيضة :

لا تذكـروا حلل الملوك فانكم ... بعد الزبير كحائض لم تغسـل !

ويقول للفرزدق :

فبعـدا لقوم أجاروا الزبير ... وأما الزبير فـلا يبعـد

ويتمنى جرير أن لو استعان بهم الزبير اذن لصانوه ولما غدروا به ثم هو يعير الفرزدق بفعلة قومه .

ويقول :

أجـيران الزبير غررتمـوه ... كما اغتر المشـبه بالسراب
ولو سـار الزبير فحل فينـا ... لمـا يئس الزبير من الاياب
لأصـبح دونه رمسات فلج ... وغير اللامعـات من الجـداب
وما بات النـوائح من قريش ... يراوحن التفجـع بانتحاب (٣٨)

ويقول :

تلاقى ليربوع اياد أرومـة ... وعـزا أبت أوتاده أن تنزعا
وجدت ليربوع اذا ما عجمتهم ... منـابت نبع لم يخالطن خروعا
هم القـوم لو بات الزبير اليهم ... لمـا بات مغلولا ولا متطلعا (٣٩)

---

(٣٦) الديوان ص ٢٣٨
(٣٧) الديوان ص ٤٤٥
(٣٨) الديوان ص ٢٧
(٣٩) الديوان ص ٣٣٩

ويقول :

ألم تر يربوعا اذا ما ذكرتهم ... وأيامهم شدوا متون القصائد
لقد داهنت في رهط عوف مجاشع ... وبان ابن عوام لكم غير حامد
فيا ليته نادى عبيدا وجعفرا ... وشا رياحيين شم الأساعد (٤٠)

بل هو يلقب الزبير بحوارى الرسول فيقول مخاطبا الفرزدق :

دعاكم حوارى الرسول فكنتم ... عضاريط يا خشب الخلاف المسرعا (٤١)

ويقول أيضا :

لقد كان يا أولاد خجخج فيكم ... محول رحل للزبير ومانع
وقد كان في يوم الحوارى جاركم ... أحاديث صدت من ثناها المسامع
وبتم تعشون الخزير كأنكم ... مطلقه حينا وحينا تراجع
يقبح جبريل وجوه مجاشع ... وتنعى الحوارى النجوم الطوالع (٤٢)

بل انه ليقول فى الزبير أبيات تبين عن عاطفته للزبير :

انى تذكرنى الزبير حسامة ... تدعو بسجع نخلتين هديلا
قالت قريش ما أذل مجاشعا ... جارا وأكرم ذا القتيل قتيلا
لو كان يعلم غدر آل مجاشع ... نقل الرحال فأسرع التحويلا
يا لهف نفسى اذ يغرك حبلهم ... هلا اتخذت على العيون كفيلا
أفبعد متركهم خليل محمد ... ترجو العيون مع الرسول سبيلا ؟
ولو اظهورهم الأسنة بعدما ... كان الزبير مجاورا ودخيلا
لو كنت حرا يا بن قين مجاشع ... شيعت ضيفك فرسخين وميلا
أفتى الندا وفتى الطعان غررتم ... وفتى الشمال اذا تهب بليلا
قتل الزبير وأنتم جيرانه ... غيا لمن غر الزبير طويلا
لو كنت حين غررت بين بيوتنا ... لسمعت من صوب الحديد صليلا
لحماك كل مغاور يوم الوغى ... ولكان شلو عدوك المأكولا (٤٣)

---

(٤٠) الديوان ص ١٥١
(٤١) الديوان ص ٣٣٨
(٤٢) الديوان ص ٣٧٢
(٤٣) الديوان ص ٤٥٤

ثم ما هذا الفرق الذى يبديه جرير من الحجاج . أليس يخشى الحجاج لأنه يعلم أن هواه الزبيرى مفضوح لدى الحجاج لذا فهو يتملقه بأنه خائف وما خوفه الا من آثار زبيريته ؟ يقول جرير :

ومن يأمن الحجاج أما عقابه فمر وأما عقده فوثيق
وما ذقت طعم النوم الا مفزعا وما ساغ لى بين الحيازم ريق (٤٤)

ولكن بم نفسر قوله فى أبناء الزبير ؟ التفسير عند الصالح الشخصى وجرير كما قلنا رجل نفعى فأبناء الزبير قضى عليهم واستتب الأمر لعبد الملك فبم يتملق عبد الملك وبم يتملق الحجاج ؟ بأنهم أصلحوا ما أفسد أولاد الزبير وأنهم قضوا على فتنتهم ولا عليه أن يسمى أتباع الزبيرية الملحدين ولقد يأتى بهذه اللفظة ليرضى أصحاب السلطان وأميل الميل كله الى أنه ما يقصد به الا العوج والانحراف عن الطاعة فحسب ولا يقصد المعنى الدينى بحال وعلى كل حال فهذه اللفظة تسمية للأتباع وليست لابنى الزبير مهما يكن من شىء فالأبيات التى يتملق فيها أصحاب السلطان بشتم أولاد الزبير قليلة وحتى الشتم فيها لا يعدو أن أولاد الزبير أفسدوا فحسب وأنهم انكسروا وأن الأمويين وفقهم الله فانتصروا . واذن فنحن نفهم الآن معنى قول محمد بن الحجاج لعبد الملك عن جرير (انه لم يكن ممن والى الزبير ولا نصره بيده ولا لسانه) وهذا حق كما رأينا . فجرير وقف يتفرج فلما انهزم من انهزم راح يشتم المهزوم ويمجد نصر الغالب ولعل عبد الملك كان يفهم نفسية جرير حق الفهم فقوله فى جرير صدق أيضا . جرير زبيرى الهوى ولا شىء غير هذا .

يقول جرير فى أبناء الزبير من قصيدة فى هجاء الفرزدق وعبيد العنبرى يقول ملتفتا الى مديح عبد الملك والحجاج :

أرى الطير بالحجاج تجرى أيامنا لكم يا أمير المؤمنين وأسعدا
رجعت لبيت الله عهد بيه وأصلحت ماكان الخبيان أفسدا (٤٥)

---

(٤٤) الديوان ص ٣٩٨
(٤٥) الديوان ص ١٨٨

ويقول جرير عن أتباع الزبير (الملحدين) وقد ناقشنا ذلك سابقا الا أنه يهمنا أن نلاحظ الآن أن هذه اللفظة انما جاء بها بعد أن أهين ولم يسمح له بالدخول على عبد الملك فهو يحاول أن يتلمس رضاه من أى سبيل يقول :

أبحت حمى تهامة بعد نجد ... وما شيء حميت بمستباح
لكم شم الجبال من الرواسى ... وأعظم سيل معتلج البطاح
دعوت الملحدين أبا خبيب ... جماحا هل شفيت من الجماح
فقد وجدوا الخليفة هبرزيا ... ألفّ العيص ليس من النواحى (٤٦)

ويقول فى مديح أيوب بن سليمان بن عبد الملك :

الله فضله والله وفقه ... توفيق يوسف اذ وصاه يعقوب
لما رأيت قروم الملك سامية ... طاح الخبيبان والمكذوب مكذوب
كانت لهم شيع طارت بها فقن ... كما تطير فى الريح اليعاسيب
مدت لهم غاية لم يجرها حطم ... الا استدار وعضته الكلاليب (٤٧)

ونعود الى سيرة الشاعر مع عبد الملك فنقول انه لم يبق لنا من مدح جرير فى عبد الملك الا قصائد ثلاث . الأولى :

أتصحو بل فؤادك غير صاح ... عشية همّ صحبك بالرواح (٤٨)

والثانية :

أواصل أنت أمّ العمر أم تدع ... أم تقطع الحبل فيهم مثل ماقطعوا (٤٩)

والثالثة :

ودع أمامة حان منك رحيل ... ان الوداع الى الحبيب قليل (٥٠)

ومدح جرير أيضا عبد العزيز بن مروان والى مصر وأخا الخليفة بالقصيدة :

أربت بعينك الدموع السوافح ... فلا العهد منسى ولا الربع بارح (٥١)

---

(٤٦) الديوان ص ٩٩
(٤٧) الديوان ص ٣٥
(٤٨) الديوان ص ٩٦
(٤٩) الديوان ص ٣٥٤
(٥٠) الديوان ص ٤٧٢
(٥١) الديوان ص ٩٩

وله فيه مدحة ثانية مطلعها :

ألمّ خيال هاج من حاجة ومرا عليك السلام ما زيارتك السفرا [٥٢]

ويظهر أنه قد قصد عبد العزيز فى مصر يقول جرير :

وما سير شهر كلفته ركابنا ولكنه شهر وصلته به شهرا
نواحل يخبطن السّرع اليكم من الرمل حتى خاض ركبانها البحرا
اذا نحن هجنا بالفلاة كأنما نهيج غداة الخمس خاضبة زعرا
طلبن ابن ليلى من رجاء فضوله ولولا ابن ليلى ما وردن بنامصرا [٥٣]

وفى هذه القصيدة عينها نراه يقول بأن تميما أخ للمروانية :

فان تميما فاعلمن أخوكم ومن خير من أبليت عافية شكرا
اذا شئتم هجتم تميما فهجتم ليوث الوغى يهصرن أعداءكم هصرا
نقود الجياد المقربات على الوجى لأعدائكم حتى أبرناهم قسرا [٥٤]

الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ ، ٧٠٥ — ٧١٥ م) :

ثم وفد جرير على الوليد بن عبد الملك فى دمشق وله فى مديحه قصائد أربع : فى واحدة يحض الوليد على البيعة لعبد العزيز ابنه دون سليمان بن عبد الملك :

الى عبد العزيز سمت عيون الرعية ان تخيرت الرعاء
اليه دعت دواعيه اذا ما عماد الملك خرت والسماء
وقال أولوا الحكومة من قريش علينا البيع اذ بلغ الفلاء
رأوا عبد العزيز ولى عهد وما ظلموا بذاك ولا أساءوا
فزحلفها بأزفلها اليه أمير المؤمنين اذا تشاء
فان الناس قد مدوا اليه أكفهم وقد برح الخفاء
ولو قد بايعوك ولى عهد لقام القسط واعتدل البناء [٥٥]

---

(٥٢) الديوان ص ٢٢٢
(٥٣) الديوان ص ٢٢٣
(٥٤) الديوان ص ٢٢٤
(٥٥) الديوان ص ؟

وله فى مدح الوليد قصيدة مطلعها :

ولقد رحلت اليكم يعسوبية ... لا يرعوين الى جنين مجهض (٥٦)

ويشيد جرير فى مدحة ثالثة بفتوحات الوليد فى الصين والهند والروم وفارس مطلعها :

طربت وما هذا الطرب وتلك ... وهل للهوى اذ راعه البين صارف (٥٧)

والمدحة الرابعة يذكر فيها جرير هدم الوليد لكنيسة دمشق والقصيدة هى :

حى الديار بساقل ... كالوحى فى رق الكتاب المعجم (٥٨)

وللأخطل مدح فى أبى الوليد العباس بن الوليد وعبد العزيز بن الوليد فله فى العباس مدحة مطلعها :

إن الخليفة من سلالة خالد ... وحذرت ذاك من أمير مشغب (٥٩)

وقوله :

من الزهريات ... وأنزل القفر ما تلقى به أحدا (٦٠)

وقوله :

سماح الكف ... يرجى المكاسب فى بدء ومعتذر (٦١)

وفى قصيدة من مدائح عبد العزيز بن الوليد يشيد جرير بانتصارات عبد العزيز على الروم وهى القصيدة :

اليك كلفتنا كل يوم عجيرة ... صد معمعانى تلظى أغابه (٦٢)

والقصيدة الثانية فى مدح عبد العزيز مطلعها :

أراح الحى من ارم الفراد ... فما أبقوا لعينك من سواد (٦٣)

---

(٥٦) الديوان ص ٢٣٠
(٥٧) الديوان ص ٣٨٢
(٥٨) الديوان ص ٤٩١
(٥٩) الديوان ص ١٨
(٦٠) الديوان ص ١٥٨
(٦١) الديوان ص ٢١٩
(٦٢) الديوان ص ٤٣٤
(٦٣) الديوان ص ١١٢

ومدحه أيضا جرير بالقصيدة :

بان الخليط فودعوا بسواد وغدا الخليط روافع الأعضاد [٦٤]

ويقول فيه بيتا :

اذا قيل أى الناس خير خليفة أشارت الى عبد العزيز الأصابع [٦٥]

ومدحه جرير بالقصيدة :

ذكرت ثرى نواظر الخزامى فكاد القلب ينصدع انصداعا [٦٦]

ولما مات الوليد رثاه جرير بالقصيدة :

يا عين جودى بدمع هاجه الذكر فما لدمعك بعد اليوم مدخر [٦٧]

وكذلك رثى عبد العزيز بأبيات عاطفية مطلعها :

نعوا عبد العزيز فقلت هذا جليل الرزء والحدث الكبير [٦٨]

سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ ، ٧١٥ - ٧١٧م) :

ولما رقى سليمان بن عبد الملك عرش الأمويين نرى الشاعر يمدحه وهو الذى رأيناه يغرى الوليد بالبيعة لابنه عبد العزيز مطلع القصيدة :

علام تلوم عاذلة جهول وقد بلى رواحلنا الرحيل [٦٩]

وفى هذه القصيدة نرى جريرا يعرض بالحجاج مولى نصته ويقرب ما بين الخليفة الذى يسميه المهدى وما بين النزارية يقول :

سليمان المبارك قد علمتم هو المهدى قد وضح السبيل
أجرت من المظالم كل نفس وأديت الذى عهد الرسول !
صنعت لك بيعة بثبات عهد فوزن العدل أصبح لا يميل !!
ألا هل للخليفة فى نزار فقد أمسوا وأكثرهم كلول

---

(٦٤) الديوان ص ١٢١
(٦٥) الديوان ص ٣٥٧
(٦٦) الديوان ص ٣٦٦
(٦٧) الديوان ص ٢٩٦
(٦٨) الديوان ص ٢٢٥
(٦٩) الديوان ص ٤٣١

وتدعـــوك الأرامل واليتـــامى ومن أمسى وليس به حويل
وتشكو المـــاشيات اليك جهدا ولا صـــعب لهن ولا ذلول
وأكـــثر زادهن وهن ســـفع حطام الجلد والعصـــب المليل
ويدعوك المكلف بعـــد جهد وعان قـــد أضر به الكبول
وما زالت معلقـــة بشـــدى بذى الديماس أو رجـــل قتيل
فرجت الهم والحلقـــات عنهم فأحيا الناس والبلد المحـــول
اذا ابتدر المـــكارم كان فيكم ربيع النـــاس والحسب الأثيل
تهينون المخاض لكل ضيف اذا ما حب فى الســـنة الجميل
علوتم كل رابيـــة وفـــرع وغيركم المذانب والهجول (٧٠)

ثم نرى جريرا يمدح أيوب بن سليمان بولاية العهد بالقصيدة :

هل ينفعك ان جـــربت تجرب أمهل شبابك بعد الشيب مطلوب (٧١)

ويمدح جرير عمر بن عبد العزيز والى المدينة فى عهد الوليد بقصيدة مطلعها:

أبت عينـــاك بالحسن الرقادا وأنكرت الأصادق والبـــلادا (٧٢)

وقد حدثت فى بداية عهد هذا الخليفة حادثة تبين الابانة كلها عن جرير رجل السياسة النفعى تلك الحادثة هى مصرع قتيبة بن مسلم الباهلى أمير خراسان من قبل الحجاج والقائد الذى أخضع بلخ وملك الصفانيان وهزم الترك وكانت له فتوحات فى بخارى وسمرقند حتى كاشغراد فى مدن الصين . المهم أن قتيبة كان قيسيا وكان معه بخراسان زعيم تميمى من يربوع هو وكيع بن أبى سود وكان قتيبة ممن وافقوا الوليد على تولية ابنه عبد العزيز العهد وعزل سليمان فاضطغنها عليه سليمان فلما تولى سليمان أشفق منه قتيبة فأعلن خلعه فثار على قتيبة الناس وولوا أمرهم وكيعا فقتل قتيبة وكان حدثا بين قيس وتميم وعلى كل حال فهناك خلاف فى سبب القتل أهو عصبى قبلى انتقم به وكيع لما أصاب قتيبة فى تميم من دماء بنى الأهتم أم هو سياسى يرجع الى أن قتيبة أعلن خلع سليمان بن عبد الملك فقتله وكيع بذلك ؟ على كل حال فقد كان موقف جرير

---

(٧٠) الديوان ص ٤٣٢
(٧١) الديوان ص ٣٢
(٧٢) الديوان ص ١٣٤

دقيقا لأن القاتل من عشيرته والمقتول من حلفائه وشيء آخر هو أن قيسا متهمة بالثورة على الملك وان كان تميم متهمة بالغدر كذلك . كيف كان موقف جرير ؟ تراه يفخر بيربوع رهطه ويقصى عنه الفرزدق لأن القاتل يربوعى لا دارمى ثم يعتذر لباهلة رهط القتيل ويعود لذكر مفاخر قيس وهجو الفرزدق والأخطل يقول للفرزدق :

ففيرك أدى للخليفة عهـــده ... وغيرك جلى عن وجـــوه الأهاتم
فان وكيعا حين خارت مجاشـــع ... كفى شعب صدع الفتنة المتفاقم
لقد كنت فيها يا فرزدق تابعـــا ... وريش الذنابى تابع للقوادم
ندافع عنكم كل يوم عظيمة ... وأنت قرا حى بسـيف الكواظم
أباهل ما أحببت قتل ابن مسلم ... ولا أن تروعـوا قومكم بالمظالم
أبا هـــل قد أوفيتم من دمائكم ... اذا ما قتلتم رهط قيس بن عاصم
تحضض يابن القين قيسا ليجعلوا ... لقومك يوما مثـــل يوم الأراقم
اذا ركبت قيس خيـــولا مغيرة ... على القين يقرع سن خزيان نادم
وقبلك ما أخزى الأخيطل قومه ... وأسلمهم للمـــأزق المتـــلاحم
رويدكم مسح الصـــليب اذا دنا ... هلال الجزى واستعجلوا بالدراهم
وما زال فى قيس فوارس مصدق ... حماة وحمالون ثقل المغـــارم
وقيس هم الفضل الذى نستعده ... لفضل المساعى وابتناء المكارم (٧٣)

ثم يمضى فى الفخر بقيس وتعداد أيامهم ويعطف بالهجاء ثم يعود للفخر وينهى النقيضة بالهجاء .

عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ ، ٧١٧ — ٧٢٠ م) :

فى الأغانى عن رواية لعمر بن شبة قال : لما استخلف عمر بن عبد العزيز جاءه الشعراء فجعلوا لا يصلون اليه فجاء عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وعليه عمامة قد أرخى طرفيها فدخل فصاح به جرير :

يا أيها القـــارىء المرخى عمامته ... هذا زمانك انى قد مضى زمنى !
أبلغ خليفتنا ان كنت لاقيه ... انى لدى الباب كالمصفود فى قرن

(٧٣) الديوان ص ٥٦١

فدخل عون على عمر فاستأذن للشاعر فأدخله عليه وقد كان جرير هيأ لعمر شعرا فلما دخل عليه غيّره وقال :

انا نرجو اذا ما الغيث أخلفنا	من الخليفة ما نرجو من المطر
قال الخلافة اذ كانت له قدرا	كما أتى ربه موسى على قدر
أذكر الجهد والبلوى التى نزلت	أم تكتفى بالذى بلغت من خبرى
ما زلت بعدك فى دار تعرفنى	قد طال بعدك اصعادى ومنحدرى
لا ينفع الحاضر المجهود باديه	ولا يجود لنا باد على حضر
كم بالمواسم من شعثاء أرملة	ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به	خبلا من الجن أو مسا من النشر
ممن يعدك تكفى فقد رائده	كالفرخ فى العش لم ينهض ولم يطر

فبكى عمر ثم قال جرير : يابن الخطفى أمن أبناء المهاجرين أو الأنصار أنت فنعرف لك حقهما ؟ أم من فقراء المسلمين فنصلك بما يوصل به من الفقراء ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ما أنا بواحد من هؤلاء وانى لمن أكثر قومى مالا وأحسنهم حالا ولكنى أسألك ما عودتنيه الخلفاء أربعة آلاف درهم وما يتبعها من كسوة وحملان . قال عمر : فما أرى لك فى مال الله حقا فأنتظر أن ما يفيض عن قوت عيالى فى سنة فهو لك . قال جرير : بل يوفر أمير المؤمنين وأخرج راضيا فلما ولى قال عمر : ان شر هذا ليتقى فأمر برده اليه وقال له : ان عندى أربعين دينارا وخلعتين وأنا مقاسمك ذلك على أن الله جل وعز يعلم أن عمرا أحوج الى ذلك منك فقال جرير : قد وفرك الله يا أمير المؤمنين وأنا والله راض قال عمر : أما وقد حلفت فان ما وفرته على ولم تضيق به معيشتنا آثر فى نفسى من المدح فامض مصاحبا . وفى رواية أخرى عن اليزيدى : أن جريرا ألح فى استجداء عمر بن عبد العزيز فقالت لجرير بنو أمية : يا أبا حزرة مهلا عن أمير المؤمنين ونحن نرضيك من أموالنا عنه فخرج وجمعت له بنو أمية مالا عظيما فما خرج من عند خليفة بأكثر مما خرج من عند عمر (٧٤) » . على أية حال فأنا أرجح رواية عمر بن شبة اذ نرى الشاعر قد عاد الى استجداء عمر بأبيات يزعم فيها أنه ابن سبيل يقول :

---

(٧٤) الأغانى جـ ٨ ص ٤٧

ان الذى بعث النبى محمدا جعل الخـــلافة فى الإمام العادل
ولقد نفعت بما منعت تحرجا مكس العشور على جسور الساحل.
قد نال عدلك من أقام بأرضـــنا فاليك حاجـة كل وفد راحـــل
انى لآمل منك خيرا عاجلا والنفس مولعة بحب العاجل
والله أنزل فى الكتاب فريضـــة لابن السبيل وللفقـــير العائل (٧٥)

ولجرير مدحة فى عمر بن عبد العزيز مطلعها :

هل رام أم لم يرم ذو السدر فالثلم ذاك الهوى منك لا دان ولا أمم

وحين يموت عمر بن عبد العزيز يرثيه الشاعر بالأبيات :

تنعى النعاة أمير المؤمنين لنا يا خير من حج بيت الله واعتمرا
حملت أمرا عظيما فاصطبرت له وقمت فيه بأمر الله يا عمرا
فالشمس كاسفة ليست بطالعـــة تبكى عليك نجوم الليل والقمرا (٧٦)

يزيد بن عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥ هـ ، ٧٢٠ ـ ٧٢٤م) :

ولما صارت الخلافة ليزيد بن عبد الملك نرى شاعرنا قد أعد مدحا للخليفة الجديد . يقول جرير فيه بيتا :

سربلت سربال ملك غير مغتصب قبل الثـــلاثين أن الملك مؤتشب

وله مدحة فيه مطلعها :

أرق العيـــون فنومهن غرار اذ لا يساعف من هـــواك مزار (٧٨)

وفى هذه القصيدة نرى جريرا الذى يساير أصحاب السلطان على آل المهلب مع الأمويين ؛ فقد ثار يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك فوقف جرير يشنع بالثوار ويحقرهم يقول :

آل المهلب قوطـــوا فى دينـــهم وطغوا كما فعلت ثمـــود فباروا
ان الخلافة يا بن دحمـــة دونها لجج تضيق بها الصـــدور غمار
ودعا المزون على ابن دحمة اذ رأوا قتلى كأن خصـــاهم الفخار

---

(٧٥) الديوان ص ٤١٥
(٧٦) الديوان ص ٥٠٩
(٧٧) الديوان ص ٣٠٤
(٧٨) الديوان ص ٢١٦

هل تذكرون اذ الحماس طعامكم واذا الصفادة أرضكم وصحار
رقصت نساء بنى المهلب عنوة رقص الرئال وما لهن خمار
لما أتوك مصفدين أذلة شفى النفوس وأدرك الأوتار (٧٩)

ويمدح الشاعر يزيد بن عبد الملك بقصيدة ثانية يحقر فيها كذلك آل المهلب مطلعها :

حيى الديار على سفى الأعاصير أستنكرتنى أم ضنت بتخبيرى (٨٠)

ولجرير فى مدح الخليفة قصيدة ثالثة يهجو فيها أيضا آل المهلب وهى :

أنظر خليلى بأعلى ثرمداء ضحى والعيش جائلة أغراضها حنف (٨١)

ولعل سر هذا الحماس فى هجو آل المهلب هو أن الخليفة يزيد بن عبد الملك كان مع القيسية اذ كانت اليمنية مع آل المهلب على يزيد . ولجرير بيتان فى مدح مسلمة أخى يزيد بن عبد الملك هما :

مسلم جرار الجيوش الى العدى كما قاد أصحاب السفينة نوح
يداك يد تسقى الغمام عدوتنا وأخرى بريئات السحاب تفوح (٨٢)

هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ ، ٧٢٤ - ٧٤٣م) :

ولما بويع لهشام بن عبد الملك كان الشاعر جرير قد كبر وابيضت لمته ولكنه قصد الخليفة فى الرصافة حيث مدحه بالقصيدة :

حيوا أمامة واذكروا عهدا مضى قبل التصرع من شماليل النوى (٨٣)

ومدحه أيضا بالقصيدة :

عفا النسران بعدك والوحيد ولا يبقى لجدته جديد (٨٤)

---

(٧٩) الديوان ص ٢٢٩
(٨٠) الديوان ص ٢٥٢
(٨١) الديوان ص ٣٨٥
(٨٢) الديوان ص ١٠٤
(٨٣) الديوان ص ٣
(٨٤) الديوان ص ١٤٦

ولم يستطع جرير بعد أن يرحل لهشـــام فبعث بمدحته فى هشام مع ابنه عكرمة معتذرا فيها عن تعويق المشيب لقصده وهى :

أصبح حبـــل وصلكم رماما وما عهـــد كعهـــدك يا أماما (٨٥)

ولجرير مدحتان فى معاوية بن هشام بن عبد الملك أولاها القصيدة :

قد مرت الحى اذ هاجوا لاصعاد بزلا مخيسة أرمام أمتاد (٨٦)

والثانية :

أمسى فؤادك ذا شجون مفصدا لو أن قلبك يســـتطيع تجلدا (٨٧)

ثم له فى مسلمة بن هشام مدحة أيضا وهى القصيدة التى مطلعها :

ما هاج شوقك من عهود رسوم بادت معارفهـــا بذى القيصوم (٨٨)

ولجرير مدائح فى ولاة هشام بن عبد الملك منهم والى اليمامة والبحرين المهاجر الكلابى وله فيه مدحتان الأولى مطلعها :

أقادك بالمقـــاد هوى عجيب ولجت فى مباعدة غضوب (٨٩)

والثانية :

ان المهـــاجر حين يبســـط كفه سبط البنان طويل عظم الساعد (٩٠)

ثم لجرير مدحة فى خالد القسرى والى العراق ، مطلع القصيدة :

لعـــل فراق الحى للبين عامدى عشية قارات الرحيـــل الفوارد (٩١)

مما سبق يبين أن شاعرنا كان مداحة يتكسب بالمديح يدور به حول نفسه .

شخصـــية جـــرير

جمعت شخصية الشاعر بين ما يبدو أنه متناقضات ولكن التناقض طبيعى فى الانسان ، ان صح هذا التعبير ؛ فالانسان ليس خيرا كله وليس شرا كله ولكن ناحية تغلب على أخرى فاذا هو خير وفيه من الشر شىء واذا هو شرير

---

(٨٥) الديوان ص ٥٠٢
(٨٦) الديوان ص ١٥٢
(٨٧) الديوان ص ١٨
(٨٨) الديوان ص ٥٣٠
(٨٩) الديوان ص ٣٩
(٩٠) الديوان ص ١٢٥
(٩١) الديوان ص ١٧٤

وفيه من الخير شيء ؛ على هذا الأساس نذهب فى تفهم شخصية شاعرنا . كان شاعرنا رقيق العاطفة بارد الأعصاب ولكنه جافى الطبع أيضا قاس مرير فى خصومته امعة حريص ذو طمع جبان جرىء فحش ذو سلاطة عفيف ذو تقوى ثم هو عاق لأبيه بر عطوف بأزواجه وأولاده . ولنفصل .

كان جرير محقرا لأبيه عاقا له يفخر أن قارع الشعراء وصرعهم بمثل أبيه عطية وهو ما هو دعة ولا يحرج جرير أن يواجه أباه برأيه فيه فيحكى أبو الفرج أن جريرا استعار من أبيه فحلا ليطرقه فى ابله فلما استغنى عنه وجاء أبوه يسترده دفعه اليه وقال : يا أبت هذا ترد الى عطية تعتل .. يعرض بقول الفرزدق فيه :

ليس الكرام بنـــا حليك أباهم حتى ترد الى عطيـــة تعتل

ولقد ورث أبناء جرير هذا العقوق عن أبيهم فلقد يروى أن جريرا راجع بلالا الكلام يوما فرد عليه ابنه ردا بذيئا فأقبلت زوج جرير تنحى باللائمة على ولدها فقال جرير : دعيه فرالله لكأنه سمعها منى وأنا أقولها لأبى . ولم يكن جرير وحده العاق بأبيه لعل أخويه عمرا وأبا الورد شاركاه هذا العقوق أيضا بل ان صلة الأخوة بين جرير وأخويه كانت متفككة ليس فيها الا الحقد والحسد وهذا يدل على انحلال الرباط العاطفى لهذه الأسرة التى نشأ بها جرير ولربما كان ذلك كله من وضع الأعداء على جرير وأسرته ، ومع ذلك فقد كان جرير بارا بأبنائه محببا الى أزواجه ويبين عن ذلك رثاؤه لولده سوادة وزوجة زرة الديلمية ثم يبين عن ذلك أيضا اباؤه أن يفرط فى زوجه أمامة وقد عرض عليه أهلها المال ليخلى سبيلها . وهذا الرجل العاطفى الرقيق الشعور يزعم أنه لم يحب انسانة قط (٩٢) ولكن كيف نقول فى هذا الغزل الذى يكاد يسيل رقة فى أشعاره ؟ يظهر أن غزله هذا الذى يبين عن أرق العواطف وألطف الأحاسيس انما هو مظهر لهذا الحب والبر الذى كان يخص به أزواجه وأولاده ولعله لهذا قال الناس بعفته فقد كان الرجل يعف بالحلائل عن الخلائل ويقف غزله على التغنى بحب أزواجه . ولكن أين العفة الحقة فى شعر جرير حين يقذف المحصنات

---

(٩٢) الأغانى جـ ٨ ص ٤٣

من مثل جعثن ويفترى عليها الكذب ويرميها بأقبح المنكر ؟ لقد برر جرير فعله هذا فى رواية حكاها أبو الفرج قال :

كان جرير وهو فى ضيافة عبد العزيز بن الوليد كان بعد أن يحدث الحضور فى كل فن وينشدهم لنفسه ولغيره يختم مجلسه بالتسبيح فيطيل . فقال له رجل : ما يغنى عنك هذا التسبيح مع قذفك للمحصنات فتبسم وقال : يا بن أخى « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم » انهم والله يابن أخى يبدأوننى ثم لا أحلم (٩٣) . ويقول ابن سلام فى طبقاته أن جريرا قال :

ألم ينه عنى الناس ان لست ظالما بريئا وانى للمحتاجين متيح

فالرجل يزعم أنهم يبدأونه بالشر فيقابلهم بمثله ثم هو بعد طامع فى رحمة الله الغفور لمن خلط عملا سيئا وآخر صالحا ففلسفة جرير فلسفة الانسان الضعيف الذى يريد ليغالب الشيطان فيفلح حينا ويخفق أحيانا ولكنه مع ذلك ليس بناس ربه فى فعله الشر والخير جميعا . ثم هو انسان من عامله بالحسنى قابله بمثلها هو ليس بالباغى ولكن من أراد ليصارعه صارعه ان خير ما يختصر هذا كله قول سكينة لجرير : « أنت عفيف وفيك ضعف » (٩٤) .

مهما يكن من شىء فقد كان الرجل كما قلنا رقيق العاطفة حتى ان عبرته لتسرع اليه ينعى اليه الفرزدق فيشمت به ثم لا يلبث أن يبكى وتمر به جنازة وهو ينشد قصيدته :

ودّع أمامة حان منك رحيل ان الوداع لمن تحب قليل

فيقطع الانشاد ويبكى قائلا : شيبتنى هذه الجنازة . ولما غناه أشعب وكان من أحسن الناس صوتا من شعره :

يا أخت ناجية السلام عليكم قبل الفراق وقبل لوم العزل
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الفراق فعلت ما لم أفعل

أخذ جرير يستعيده وهو يبكى حتى اخضلت لحيته . ولكنه أيضا هو ذلك القاسى العنيف فى قسوته يحمل اليه نعى الفرزدق فيشمت به قائلا :

مات الفرزدق بعدما جدعته ليت الفرزدق كان عاش قليلا

---

(٩٣) الأغانى جـ ٨ ص ٤٣
(٩٤) الأغانى جـ ٨ ص ٣٨

ومن قبله شمت بموت الأخطل فقال يهجوه بعد الممات :

زار القبـــور أبو مالك فكـان كألأم زوّارهـا
تنوح بنـات أبى مالك ببوق النصـارى وزمّارها
لقـد سرنى وقع خيل الهـذيل وترغيم تغلب فى دارها (٩٥)

ومن مظاهر رقة عاطفته تدينه وكانت هذه الخصيصة فيه واحدة من حجج من كانوا ينتصرون له على الفرزدق وكانت هذه العاطفة التقوية أيضا مما فضل به عمر بن عبد العزيز جريرا على الفرزدق وينقل الينا أبو الفرج خبرا لعله حق أو غير حق على أية حال فلهذا الخبر دلالته ورمزه الى الحقيقة ــ يقول أبو الفرج ان جريرا التقى والفرزدق وهما حاجان فقال الفرزدق لجرير :

فانك لاق بالمنازل من منى فخارا فخبرنى بمن أنت فاخـر

فقال جرير : بلبيك اللهم لبيك ! هذا الخبر يبين عن جرير رجل التقوى الذى لا يذكر فى وقفته بين يدى الله الاه سبحانه وعن الفرزدق رجل الحمية الجاهلية الذى غفل عما ينبغى لمقام الله من اجلال وتقديس فلا يقف الانسان فى حضرته سبحانه الا وقفة الذليل الخاشع لسيد الكون وربه . ثم لهذا الخبر دلالته أيضا على صبر جرير وبرود أعصابه ولنفرض السائل جرير والمسئول الفرزدق اذن لا تدفع الفرزدق يتشدق متفاخرا ولكنه جرير الوديع الهادىء . يقول ابن سلام فى طبقاته : كان الفرزدق يتضور ويجزع اذا أنشد لجرير وكان جرير ذا صبر . على أنا نلمح أثرا قويا لعاطفته التقوية فى ديوانه فقد كان الرجل يحيا فى شعره حياة اسلامية فنرى فى قصيدة الماعات لما حدث لقوم عاد وثمود و ... ذكر للأنبياء سليمان وموسى ويوسف واسحاق ونوح ... وكيف أن الله عد عباده الصالحين بقوة من عنده وغير هـــذا مما يدل على أن جريرا يتأثر القصص القرآنى . نراه مثلا يفخر بابراهيم واسحق فيقول :

أبونا أبو اســحاق يجمع بيننـا أب كان مهــديا نبيـا مطهــرا
ومنا سليمان النـــبى الذى دعا فأعطى بنيـانا وملكا مسخرا
وموسى وعيسى والذى خر ساجدا فأنبت زرعا دمع عينيــه أخضرا

(٩٥) الديوان ص ٣٠٣

ويعقوب منا زاده الله حكمـــة ... وكان ابن يعقوب أمينا مصـورا
فيجمعنا والغر أبنـــاء سارة ... أب لا نبالى بعـــده من معذرا
أبونا خليل الله والله ربنـا ... رضـــينا بما أعطى الاله وقدرا
بنى قبلة الله التى يهتـــدى بها ... فأورثنا عـــزا وملكا معمـــرا (٩٦)

ويقول فى مدحه لهشام بن عبد الملك ذاكرا نصرة الله لأمير المؤمنين بملائكته ومشبها حملة الخليفة على أعدائه بريح عاد :

لاقـــوا بعوث أمير المؤمنين لهم ... كالريح اذ بعثت نحسا على عاد
فيهم ملائكـــة الرحمـــن ما لهم ... سوى التوكل والتسبيح من زاد
أمـــداد حق على بلق مســـومة ... أمداد ربك كانوا خير أمـــداد (٩٧)

ويقول لأهل العراق :

أطيعـــوا فلا الحجاج مبق عليكم ... ولا جبرئيـــل ذو الجناحين غافل

وغير هذا كثير مما تفرق فى ديوانه وسنعرض له ثانية عند كلامنا على فن الشاعر .

ثم ان جريرا كان امعة وهذه الخصيصة جعلت منه جبانا وانما ينضم للأقوى ومن بيده السلطان فهواه مع الزبيرية ولكنه لا ينافح دونهم ثم اذ ينكسر أبناء الزبير يعرض بهم ارضاء للسلطان ثم هو مادح للحجاج منقطع اليه يتملقه بابداء فرقه ثم هو بعد فى عهد سليمان يعرض به وبعسفه . وهو يبيع نفسه للقيسية أعداء قومه تميم ويصبح المحامى عنهم وصلته مع ذلك باقية بقومه وهو يريد لتكون البيعة ليزيد بن الوليد دون سليمان بن عبد الملك فلما استخلف سليمان مدحه الشاعر وانقلب معه . وهكذا نرى الرجل دواما مع السلطان حيث كان لينتفع منه ثم ليحتمى فيه متجنبا مع ذلك كله أى صدام مع صاحب سلطان قائم ومكتفيا من الصدام بشتم المنكسر اذ ينكسر . وهذا الشاعر الجبان كان من أشد الناس جراءة وأين ؟ فى حضرة الخلفاء فهو يطلب من عبد الملك أن يأذن له فى الأخطل وقد زعم أنه منع نوم جرير وتهضم قومه وفى حضرة الوليد بن

---

(٩٦) الديوان ص ٢٤٣
(٩٧) الديوان ص ١٥٣

عبد الملك يتناول جرير على شاعر الخليفة عدى بن الرقاع حتى ليكاد يوضع على ظهره الاكاف ليركبه عدى لولا شفاعة عمر بن الوليد (٩٨) . ولعل سر جرأته على الصدام هنا أن المعركة كلامية هى بين شاعر وشاعر فحسب لا تتعدى قوة القول الى قوة السيف ثم جرير يتقدم على العراك لثقته بقوة لسانه واعتداده ببيانه .

وان رحنا نتتبع بعض مدح الشاعر نرى صورة واضحة لجشعه فهو يقف بين يدى الخلفاء يشكوهم الفقر والفاقة غير مستح أنه انما يكذب ويختلق فلننظر اليه يقول لبعضهم :

تعـــزة أم حـــزرة ثم قالت	رأيت الموردين ذوى لقاح
تقول وهى ســـاغبة بنيها	بأنفـــاس من الشئم القراح
سأمتاح الصـــبور فجنبينى	أذاة اللوم وانتظرى امتياحى
تقى بالله ليس له شريك	ومن عند الخليفة بالنجاح
أتتنى يا فداك أبى وأمى	بسبب منك انك ذو ارتياح ! (٩٩)

فيأمر له عبد الملك بمائة ناقة وثمانية من الرعاء ولكن جريراً يرى بين يدى الخليفة جماعة من ذهب فيقول : تأمر لى بواحدة منهن تكون محلبا ! فيعطيه الخليفة جميعا . ويقول جرير للفرزدق :

ألا تشكو اليك زمان محـــل	وشرب المـــاء فى زمن الجليـــد
ومعتبة الضيال وهم سغاب	على در المجالحة الرفود
زمانا يترك الفتيات سودا	وقد كان المحـــاجر غير ســـود

ويقول للوليد بن عبد الملك :

أشكو اليك وربما تكفرتنى	عض الزمان وثقل دين المغـــرم

ويقول لعمر بن عبد العزيز :

أأذكر الجهد والبلوى التى نزلت	أم تكتفى بالذى بلغت من خبرى
ما زلت بعدك فى دار تعـــرقنى	قد طال بعدك اصعادى ومنحدرى

---

(٩٨) الأغانى جـ ٨ ص ٧٢ ، ٧٩

(٩٩) الديوان ص ٩٧ ، ٩٨.

لا ينفع الحاضر المجهـــود بادينا ولا يجود لنـــا باد على حضر
كم بالمواسم من شـــعثاء أرملة ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر
يدعوك دعوة ملهـــوف كأن به خبلا من الجن أو مسا من النشر
ممن يعدك تكفى فقـــد والده كالفرخ فى العش لم ينهض ولم يطر

ولما يسأله عمر : آأنت من أبناء الأنصار أو المهاجرين أو فقراء المسلمين ؟ فيقول : ما أنا بواحد من هؤلاء وانى لمن أكثر قومى مالا وأحسنهم حالا ولكنى أسألك ما عودتنيه الخلفاء أربعة آلاف درهم وما يتبعها من كسوة وحملان . فكما نرى الرجل — باعترافه نفسه — ذو مال ولكنه يشكو لكل خليفة الفقر الذى لا يشكوه الا معدم لا يملك كسرة خبز ومع أن جريرا كان ذا نعمة فقد كان بها بخيلا وعليها حريصا حتى أن أمة اشتراها من بنى زيد وكانوا منعمين يستخف مطعمه وملبسه فتلح فى أن يبيعها فيقول :

تكلفنى معيشـــة آل زيد ومنّ لى بالمرقّق والصـــناب

ونحن نرى بعد أن الشاعر يوصى ابنه حزرة بأن يتأثر سيرته هو فى الكرم والبذل (١٠٠) !

وكان جرير خفيف الروح حلو النكتة لاذعها سريع الجواب يسعفه فى ذلك كله ذكاء وفطنة . يقول جرير عن الأحوص وكان يفضل الفرزدق عليه : هذا الخبيث ابن الطيب ! ثم يقبل جرير على الأحوص قائلا : قد قلت :

يقر بعينى ما يقـــر بعينها وأحسن شىء ما به العـــين قرت

فانه يقر بعينها أن يدخل فيها مثل ذراع البكر فيقر ذلك بعينك ؟

وفى حضرة الوليد بن عبد الملك وكان شاعره عدى ينشده مديحه فيه قال الوليد لجرير : كيف تسمع ؟ قال : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : عدى بن الرقاع . قال : فان شر الثياب الرقاع ! فممن هو ؟ قال : من عاملة . قال : أمن التى قال الله تعالى فيها : « عاملة ناصبة تصلى نارا حامية ؟ » .

وعن حجناء بن جـــرير قال : قلت لأبى : يا أبت ما هجـــوت قوما قط الا فضحتهم الا التيم فقال : يا بنى لم أجد بناء أهدمه ولا شرفا أضعه ! (١٠١)

---

(١٠٠) الديوان ص ١٣٩
(١٠١) الأغانى جـ ٨ ص ٣٤ ، ٧٨

وفى الأغانى أن جريرا استأذن يوما على عبد الملك والأخطل عنده وقد كان جرير والأخطل تهاجيا دون أن يرى أحد صاحبه ـ فلما أذن لجرير عرف الأخطل صاحبه ولم يعرفه جرير وأخذ الأخطل يصعد نظره فيه ويحدره فلمحه جرير فقال له : من أنت ؟ فقال : أنا الذى منعت نومك وتهضمت قومك . فقال له جرير : ذلك أشقى لك كائنا من كنت ! وسأل جرير عبد الملك عنه فقال وهو يضحك : هذا الأخطل يا أبا حزرة . فرد جرير عليه بصره وقال : فلا حياك الله يا ابن النصرانية أما منعك نومى فلو نمت عنك لكان خيرا لك وأما تهضمك قومى فكيف تهضمهم وأنت ممن ضربت عليه الذلة وباء بغضب من الله وأدى الجزية وهو صاغر وكيف تتهضم لا أم لك قوما فيهم النبوة والخلافة وأنت لهم عبد مأمور ومحكوم عليه لا حاكم !! ؟ (١٠٢)

قصة جرير الشـــاعر الهجاء

فى الأغانى يورد أبو الفـــرج هذه الرواية التى ترمز أبلغ الرمـــز الى جرير رجل الهجـــاء الذى ما يكاد يسمك بخناق هـــذا حتى يدعه ليمسك ليمسك بخناق آخر . يقول جرير عن نفسه للوليد بن عبد الملك : (انما أنا واحد قد سعرت الأمة فلو كثر أمثالى لأكلو الناس أكلا » (١٠٣) . ويقول عنه الفرزدق : (والله ما أعرف نابحا الا وقد استكان ولا ناهشا الا وقد انجحر الا القائل : .... ثم يورد أبياتا لجرير (١٠٤)) وفى طبقات الشعراء يقول الأخطل وقد سئل عن جرير : (دعوا جريرا أخزاه الله فانه كان بلاء على من صب عليه) ويقول الحجاج فى جرير : قاتله الله اعرابيا ! انه لجرو هراش (١٠٥) ! ذلكم هو جرير الهجاء فما قصة الهجاء عنده ؟

بدء القصة نزاع بين حيين من أحياء تميم سليط وبنى كليب حول غدير وكاد ينتهى النزاع بتدخل زقماء الحيين لولا أن الشعر تدخل فأفسد المسعى

---

(١٠٢) الأغانى جـ ٨ ص ٦٢
(١٠٣) الأغانى جـ ٨ ص ٧٩
(١٠٤) الأغانى جـ ٨ ص ٣٥
(١٠٥) الأغانى جـ ٨ ص ٢٨

وأشعل النار التى كادت تنطفىء فنرى جريرا يناضل عن حيه كليب وغسان بن ذهيل يحامى عن حيه سليط . هجا سليط جريرا بأبيات منها :

لعمرى لئن كان بجينة زانهـــا جرير لقد أخزى كليبا جـريرها

فأجابه جرير بقصيدة أزعجته فأفحم منها قوله :

ألا ليت شعرى عن سليط ألم تجد سليط سوى غسان جارا يجيرها
فقدضمنوا الأحساب صاحب سوأة يناجى بها نفســا خبيثا ضميرها

فاستنصر بنو سليط بن يربوع البعيث (وكان ولدهم وولدوه) وشكوا اليه قهر جرير غسانا السليطى فقال :

اذا ما أيسرت معزى عطية وارتعت تلاعا من المروت أحـوى جميمها
تعرضت لى حتى صككتك صكة على الوجه يكبو لليــدين أميمها
أليست كليب ألأم النـــاس كلهم وأنت اذا عـــدت كليب لئيمهـا

وكانت أم البعيث أمة حمراء سجستانية تسمى فرتنا فكان يقال له ابن حمراء العجان فهجاه جرير وثاوره فاستصرخ الفرزدق والفرزدق يومئذ بالبصرة وقد قيد نفسه وآلى أن لا يفك قيده حتى يقرأ القرآن فقال البعيث :

لعمرى لئن ألهى الفرزدق قيــده ودرج نوارذو الدهان وذو الغسل
ليبتعثن منى عداة مجاشـــع بديهة لا دانى الجزاء ولا وعـــل

فقال جرير :

جـزعت الى درجى نوار وغسلها فأصبحت عبدا ما تمر ولا تحلى

وعد البعيث مغلوبا حين استغاث . وقال الفرزدق : « انى ان وثبت على جرير الآن حققت على الغلبة ولكنى كأنى وثبت عليهما فأدع البعيث وآخذ جريرا فقالوا الطبيب أطب فقال :

لود جـــرير اللوم لو كان عاتبا ولم يدن من زأر الأسود الضراغم
وليس ابن حمراء العجان بسفلتى ولم يزدجر طير النحوس الأشائم
وانكما قد هجتمـــانى عليكما فلا تجزعا واستسمعا للمراجم

وقال :

دعانى ابن حمراء العجان ولم يجد له اذ دعا مستأخرا عن دعائيا
فنفست عن أنفيه حتى تنفسا وقلت له لا تخش شيئا ورائيا

ولج الهجاء نحوا من أربعين سنة لم يغلب واحد منهما على صاحبه ولم يتهاج شاعران فى الجاهلية والاسلام بمثل ما تهاجيا به وانقسم الشعراء الى جريرى وفرزدقى وحاول من أراد الشهرة منهم أن يظفر من جرير أو الفرزدق بنقيضة وأخذ بعض أرباب السلطان والولاة من جانبهم يحرشون الشعراء بعضهم ببعض والناس فى ذلك كله فى تلهف لسماع ما يقول جرير فى الفرزدق وما يقول الفرزدق فى جرير وأخذ كلا الشاعرين يهجوان من ينتصر لغريمه دونه ذلك لأن المعركة الهجائية تطورت الى استباق فنى فجرير يريد أن يصرع الفرزدق والفرزدق يريد الغلبة على جرير ولكن واحدا لم يستطع الغلبة على صاحبه فراح الناس من جانبهم يحكمون حسب أهوائهم من هو الغالب ، فمن قال بالغلبة للفرزدق هجاه جرير ومن قال بالغلبة لجرير هجاه الفرزدق . وفى الأغانى خبر طويل عمن هاجاهم جرير وعلة هجائه لكل منهم وقبل أن نعرض لهذا الخبر نحب أن نقف قليلا عند عدة من هاجاهم جرير . يقول جرير وقد سأله سائل : من أشعر الناس ؟ فأجابه معرضا بدناءة أبيه : أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعرا وقارعهم به فغلبهم جميعا (١٠٦) . فهم اذن ثمانون .

ويقول الأصمعى : كان ينهشه (أى جريرا) ثلاثة وأربعون شاعرا فينبذهم وراء ظهره ويرمى بهم واحدا واحدا ومنهم من كان ينفحه فيرمى به وثبت له الفرزدق والأخطل (١٠٧) . فهم اذن ثلاثة وأربعون . وفى ذلك الخبر الطويل الذى يورده أبو الفرج يذكر جرير للحجاج عدة من هاجاهم من الشعراء وهم عشرون شاعرا فيهم الفرزدق والأخطل (١٠٨) . على أية حال فقد كان الشعراء الذين تحاربوا فى معركة جرير والفرزدق كثرة . وسنحاول هنا أن نعرض فى ايجاز للأسباب التى هجا من أجلها جرير بعضا من تلك الكثرة هجا جرير سحمة الأعور النبهانى وحكيم بن معية من بنى ربيعة بن مالك بن زيد مناة

(١٠٦) الأغانى جـ ٨ ص ٤٩
(١٠٧) الأغانى جـ ٨ ص ٨
(١٠٨) الأغانى جـ ٨ ص ١٣ — ٢٨

من تميم لعونهما غسـانا السليطى عليه . وهجا جـرير المرار بن منقـذ البرجمى والأشـيب بن رميلة والدلهس وقبضـة الكلب وعمر بن يزيد لتعصبهم للفرزدق عليه وهجا جرير هبيرة بن الصلت الربعى والطهوى لروايتهما شعر الفرزدق وهجا عقبة بن السنيع الطهوى لأنه نذر دم جرير ولعله تعصب للطهوى وهجا كذلك حفنة الهزانى ولعله تعصب للفرزدق على جرير وكان جرير لا يرحم من صار الى الفرزدق عليه يروى صاحب الأغانى أن عمر بن يزيد ابن عمير الأسدى وكان يتعصب للفرزدق على جرير تزوج امرأة من بنى عدس ابن زيد بن عبد الله بن دارم فقال جرير :

نكحت الى بنى عـدس بن زيد فقد هجنت خيلهم العـرابا
أتنسى يوم تسـكن اذ تنـادى وقد أخطأت بالقدم الركابا

وهى قصيدة فاجتمعوا على عمر بن يزيد ولم يزالوا به حتى خلعوا المرأة منه (١٠٩) !

ولما أتى الفرزدق مجلس بنى الهجيم فى مسجدهم فأنشدهم وبلغ ذلك جريرا أتاهم من غده لينشدهم كما أنشدهم الفرزدق فقال له شيخ منهم : يا هذا اتق الله ! فان هذا المسجد انما بنى لذكر الله والصلاة فقال جرير : أقررتم للفرزدق ومنعتمونى وخرج مغضبا ثم أنشد :

ان الهجيم قبيلة ملعـونة حص اللحى متشابهـو الألوان
هم يتركون بنيهم وبناتهم صعر الأنوف لريح كل دخان !
لا يـسمعون بأكلة أو شربة بعمان أصبح جمعهم بعسـان !!

وكان يغيظ جريرا أن يفضل شاعر الفرزدق عليه لأن المعركة — كما قلنا — معركة استباق فنى لذلك كان أحيانا ينذر قبل أن يهجو . فالراعى حين سئل عن جرير والفرزدق قال : الفرزدق أكرمهما وأشعرهما فلقيه جرير فاستعذره من نفسه وطلب اليه ألا يدخل بينهما وقال : أنا كنت أولى بعونك انى لأمدحكم — لأن الراعى قيسى — وانه ليهجوكم . قال : أجل ولست لمساءتك بعائد . ثم قدم الراعى البصرة فدعاه عرادة النميرى وكان نديما للفرزدق وأطعمه وسقاه وقال فضل الفرزدق على جرير فأبى فلما أخذ منه الشراب لم يزل به حتى قال :

---

(١٠٩) الأغانى جـ ٨ ص ٧٤

يا صاحبى دنا الرحيل فسيرا غلب الفرزدق فى الهجاء جريرا

ثم لقيه جرير فعاتبه وبينا الراعى يعتذر اليه أقبل ابنه جندل وكان تياها فيه خطل فقال لأبيه : انى لأراك تعتذر الى ابن الأتان والله لنفضلن عليك ولنروين هجاءك عليه ولنهجونك من تلقاء أنفسنا وضرب وجه بغلة جرير وقال :

ألم تر أن كلب بن كليب أراد حياض دجلة ثم هابا

فانصرف جرير مغضبا وكان جرير نازلا على امرأة من بنى كليب فى البصرة فبات فى علية لها وهى سفل دارها يقظان يعالج قصيدته :

أقلى اللوم عاذل والعتابا وقولى ان أصبت لقد أصابا

ولما كان السحر اذا هو بكبر قد قالها ثمانين بيتا فى بنى نمير . فلما ختمها بقوله :

فغض الطرف انك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

كبر ثم قال : أخزيته ورب الكعبة ثم أصبح حتى اذا عرف أن الناس قد جلسوا فى مجالسهم بالمربد دعا بدهن فادهن وكف رأسه — وكان حسن الشعر — ثم أمر غلامه أن يسرج له ثم قصد المربد وقال لغلامه : قل لعبيد (هو عبيد بن حصين الراعى) : أبعثك نسوتك تكسبهن المال بالعراق ! أما والذى نفس جرير بيده لترجعن اليهن بمير يسوءهن ولا يسرهن ثم اندفع فيها فأنشدها فنكس الفرزدق وراعى الابل حتى اذا فرغ منها وسار ولحق الراعى بأهله حيث ارتحلوا عن مقامهم الذى ينزلون وتزعم بنو نمير أن الراعى حلف أن لا يجيب ابنه سنة غضبا عليه وأنه مات فى السنة ويقول آخرون بل كمد لما سمعها فمات . ويقال ان بيتا من هذه القصيدة قاله جرير مفتخرا غاظ واحدا من الشعراء هو العباس بن يزيد الكندى فأحب أن يهجو جريرا ولعله بغى لنفسه الشهرة أما بيت الفخر فهو :

اذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

وأما معارضة العباس الكندى لجرير فهى قوله :

ألا رغمت أنوف بنى تميم قساة النمر ان كانوا غضابا

لقد غضبت عليك بنو تميم فما نكأت بغضبتها ذبابا.
لو اطلع الغراب على تميم وما فيها من السوءات شابا

فأهمله جرير سنين خمسا ثم علم أن هضيبة أخت العباس قد حبلها عتاب الذى أنزلهم فى جواره فهجا جرير العباس بأبيات على نفس وزن وقافية أبيات العباس أولها :

اذا جهل الشقى ولم يقدر لبعض الأمر أوشك أن يصابا

وكان الأحوص وذو الرمة كذلك يميلان للفرزدق فعرض جرير بالأحوص ولم يهجه قال :

عوى الشعراء بعضهم لبعض علىَّ فقد أصابهم انتقام
اذا أرسلت قافية شرودا رأوا أخرى تحرق فاستداموا
فمصطلم المسامع أو خصى وآخر عظم هامية حطام (١١٠)

وأما ذو الرمة فقد كان يهاجى هشاما المرئى ويستعلى عليه فلما بلغ جريرا أن ذا الرمة عليه رفد هشاما أبياتا فلقى ذو الرمة جريرا واعتذر اليه فرفده جرير بأبيات ما ان وصلت هشاما حتى جعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو لويله وحربه ويقول : مالى ولجرير ! ؟

وقد دخل بين الشاعرين جرير والفرزدق شعراء يبغون الشهرة — كما قلنا — من طريق ذكرهما اياهم . منهم اللعين المنقرى قال :

سأحكم بين كلب بنى كليب وبين القين قين بنى عقال
فان الكلب مطعمه خبيث وان القين يعمل فى سفال
وقد حسر البعيث وأقعدته لئيما المناخر والسبال
ويترك جده الخطفى جرير ويندب حاجبا وبنى عقال

فلم يلتفت اليه جرير والفرزدق كلاهما فقال :

فما بقيا على تركتمانى ولكن خفتما صرد النبال

وقال الصلتان العبدى :

ألا انما تحظى كليب بشعرها وبالمجد تحظى نهشل والأقارع

(١١٠) الاغانى جـ ٨ ص ٦٥

أنا الصـــلتانى الذى قد عرفتم ... متى ما يحكم فهو بالحكم صادع
أتتنى تميم حين هابت قضـــاتها ... فهل أنت للفضـــل المبين سامع
قضاء امرىء لايرهب الشتم منكم ... وليس له فى الحكم منكم منازع
فما رجـــع الأعشى قضية عامـــر ... وما لتميم فى قضـــائى راجع
فان يك بحـــر الحنظليين واحدا ... فما تستوى حيتـــانه والضفادع
فيا شاعرا لا شـــاعر اليوم مثله ... جـــرير ولكن فى كليب تواضع
ويرفع من شعر الفرزدق أنه ... ينوء بجبى للخصيمـــة رافـــع
يناشـــدنى النصر الفرزدق بعدما ... ألحت عليه من جرير صواقع

فلم يرض واحد منهما حكمه وتطفله وأهمله الفـــرزدق أما جرير فأجابه بالبيت :

أقول ولم أملك ســـوابق عبرة ... متى كان حكم الله فى كرب النخل

فقال الصلتان :

أعيرتنـــا بالنخل أن كان مالنـــا ... لود أبوك الكلب أن كان ذا نخل

فاعترضه خليد عينين من أهل هجر فقال :

وأى نبى كان فى غـــير قـــرية ... ما الحكم يابن اللؤم الا مع الرسل

فقال جرير :

نخل الفخـــر يا ابن أبى خليد ... وأد خراج رأسك كل عام !
لقـــد علقـــت يمينك رأس ثور ... وما علقت يمينك باللجـــام

وكان من دواعى هجاء جرير أيضا للشعراء أسباب فنية كأن يقلب شاعر معنى بيت مثل عمر بن لجأ الذى كان ينشد أرجوزة له يصف فيها ابله وجرير حاضر فقال فيها :

قد وردت قبـــل انا نصـــائها ... تغرس الحيات فى خـــير شائها

جر العجوز الثنى من ردائها

فقال له جرير أخفقت : فقال : كيف أقول : قال تقول :

جر العروس الثنى من ردائها

فقال له التيمى أنت أسوأ قولا منى حيث تقول :

وأوثق عند المـــردفات عشـــية لحاما اذا ما جـــرد السيف لامع

فجعلتهن مردفات غدوة ثم تداركتهن عشية . فقال : كيف أقول ؟ قال تقول:

وأوثق عند المرهفات عشية

فغضب جرير وقال فيه :

هلا ســـوانا ادرأتم يا بنى لجـــأ شيئا يقارب أو وحشا لهـــا غرر
خل الطريق لمن يبنى المنـــار به وابرز ببرزة حيث اضطرك القدر
أنت ابن برزة منســـوبا الى لجأ عند العصارة والعيـــدان تعتصر

فرد عليه ابن لجأ وأعان عمر بن لجأ على جرير البلتع وكان علقة والسر ندى من بنى الرباب يعينان ابن لجأ كذلك وفى رواية لأبى الفرج أن جريرا وعمر بن لجأ لما تهاجيا وتقاذفا أمر بهما عمر بن عبد العزيز فقرنا وأقيما بسوق المدينة وكان جرير قد أسن وضعف وعمر لما يزل شابا وذلك لقول جرير فى أم عمر ابن لجأ :

تقول والعبد مســكين يجـــررها أرفق فديتك أنت الناكح الذكر(١١١)

وفى رواية أخرى أن الوليد بن عبد الملك ــ وكان يتأله فى نفسه ــ قال لهما : أتقـــذفان المحصنات وتغضبانهن ! ؟ ثم أمر أبا بكر محمد بن حـــزم الأنصـــارى وكان واليـــا له بالمدينة بضربهما فضربهما وأقامهما على البلس مقرونين (١١٢) . وأنف الفرزدق لجرير وحمى من أن يتعلق به التيمى فقال لعمر ابن عطية أخى جرير وقد لقيه : قل لأخيك : ايت التيمى من عل كما أصنع أنا بك ثم قال الفرزدق فى التيمى :

وما أنت ان يوما تميم تســـاميا أخا التيم الا كالوشيظة فى العظم
فلو كنت مولى العز أو فى ظلاله ظلمت ولكن لا يدى لك بالظلم

(١١١) الأغانى جـ ٨ ص ٨٢
(١١٢) الأغانى جـ ٨ ص ٧٠

فقال له التيمى :

كذبت أنا القرء الذى دق مالكا وأفناء يربوع وما أنت بالقرم (١١٣)

ثم ان رجال تميم مشت بين جرير والتيمى ولم يزالوا بهما حتى أصلحوا بينهما بالعهود والمواثيق المغلظة ألا يعودا فى هجاء فكف التيمى وكان جرير لا يزال يسل الواحدة بعد الواحدة فيه فيقول التيمى : والله ما نقضت هذه ولا سمعتها ، فيقول جرير : هذه كانت قبل الصلح !! ويظهر أن هذه المعركة آثارت أعظم الاهتمام آنئذ فى الأغانى عن عبد الرحمن بن حرملة قال : لما ورد علينا هجاء جرير والتيمى قال لى سعيد بن المسيب تروى شيئا مما قالا فأتيته وقد استقبل القبلة يريد أن يكبر ، فقال لى : أرويت ؟ قلت : نعم . فأقبل على بوجهه فأنشدته للتيمى وهو يقول : هيه هيه ! ثم أنشدته لجرير فقال : أكله ! أكله (١١٤)

وهذا الأتون المستعر من الهجاء كان يزكيه الولاة اتقادا فنرى بشر بن مروان أخا الخليفة عبد الملك بن مروان « وكان من فتيان قريش سخاء ونجدة ممدحا يمدح جريرا والفرزدق والأخطل وكثير وأعشى بن شيبان » كما يقول ابن سلام فى طبقاته نراه يغرى بين الشعراء وهو سبب تهاجى جرير والأخطل وسراقة البارقى فيروى لنا أبو الفرج الأصفهانى أن محمد بن عمير بن عطارد ابن حاجب بن زرارة بذل أربعة آلاف درهم وفرسا لمن فضل من الشعراء الفرزدق على جرير فلم يقدم عليه أحد منهم الا سراقة البارقى فانه قال يفضل الفرزدق .

أبلغ تميما غثها وسمينها والحكم يقصد مرة ويجور
أن الفرزدق برزت أعراقه سبعا وخلف فى الغبار جرير
ذهب الفرزدق بالفضائل والعلا وابن المراغة مخلف محسور
هذا قضاء البارقى وانى بالميل فى ميزانهم لبصير

فبعث بشر برسوله الى جرير ومعه كتاب نسخ له فيه القصيدة وأمره أن يجيب عنها فأتى الرسول جريرا وأخرج اليه الكتاب وقال له : انه أمرنى ألا أبرح حتى تجيب عن الشعر فى يومك : فقال جرير قصيدته التى منها الأبيات :

---

(١١٣) الأغانى جـ ٨ ص ٧٧
(١١٤) الأغانى جـ ٨ ص ٧٧

يا صـــاحبى هـــل الصباح منير ... أم هل للوم عـــواذلى تقتير
يا بشر انك لم تزل فى نعمـــــة ... يأتيك من قبل المليك بشير
بشر بن مـــروان ان عاسرته ... عسر وعند يساره ميسور
قد كان حقك أن تقـــول لبارق ... يا آل بارق فيم ســـب جـــرير
ان الكريمة ينصر الكرام ابنـــها ... وابن اللئيمة للئـــام نصور
أمسى سراقة قد عـــوى لشقائه ... خطب وأمـــك يا سراق يسـير
أسراق انك لا نـــزارا نلتم ... والحى من يمن عليك نصير

فأخذ الرسول ومضى بها الى بشر فقرئت بالعراق وأفحم سراقة فلم ينطق بعدها[١١٥] . ويروى ابن سلام فى طبقاته أنه حين مر جرير بمنى والناس مجتمعون على سراقة وهو ينشد بهره جماله واستحسن نشيده فقال له جرير : من أنت ؟ قال : بعض من أخـــزى الله على يديك ! قال : أما والله لو عـــرفتك لوهبتك لظرفك !

ويحدثنا صاحب الأغانى عن بشر هذا فيقول كذلك : ان جريرا والفرزدق اجتمعا عند بشر بن مروان فأرادهما بشر ليجدوا بين يديه فخرا فقال الفرزدق :

نحن المناسم والســـنام غيرنا ... فمن ذا يساوى بالســـنام المناسما

فقال جرير :

على موضع الأستاه أنتم زعمتم ... وكل ســـنام تابع للفلاصيم

فقال الفرزدق :

على محرث للقرس أنتم زعمتم ... ألا ان فوق الفلصمات الجماجما

فقال جرير :

وأنبأتمـــونا أنكم هام قومكـــم ... ولا هام الا تابع للخـــراطم

فقال الفرزدق :

فنحن زمام القـــائد المعتدى به ... من الناس ما زلنا ولسنا لهازما

فقال جرير :

فنحن بنى زيد قطعنا زمامها ... فتاهت كسار طائش الرأس عارم

---

(١١٥) الأغانى جـ ٨ ص ٦٨

فقال بشر : غلبته يا جرير بقطعك الزمام وذهابك بالناقة وأحسن الجائزة لهما وفضل جريرا . وما اتصل الهجاء بين جرير والأخطل الا بسبب بشر هذا — كما سبق — يقول الأصفهانى : انه لما بلغ الأخطل تهاجى جرير والفرزدق قال لابنه مالك — وهو أكبر ولده وبه كان يكنى — انحدر الى العراق حتى تسمع منهما وتأتينى بخبرهما فانحدر مالك حتى لقيهما وسمع منهما ثم أتى أباه فقال له . كيف وجدتهما ؟ قال : وجدت جريرا يغرف من بحر أشعرهما وقال يفضل ينحت من صخر فقال الأخطل : الذى يغرف من بحر أشعرهما وقال يفضل جريرا على الفرزدق :

انى قضيت قضاء غير ذى جنف ... لما سمعت ولما جاءنى الخبر
أن الفرزدق قد شالت نعامته ... وعضه حية من قومه ذكر

ثم ان بشر بن مروان دخل الكوفة فقدم عليه الأخطل فبعث اليه محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة بألف درهم وكسوة وبغلة وخمر وقال له : لا تعن على شاعرنا واهج هذا الكلب الذى يهجو بنى دارم فانك قد قضيت على صاحبنا فقل أبياتا وأقض لصاحبنا عليه . فقال الأخطل :

أجرير انك والذى تسمو له ... كأسيفة فخرت بحد حصان
عملت لريتها فلما عوليت ... نسلت تعارضها مع الركبان
أتعد مأثرة لغيرك فخرها ... وثناؤها فى سالف الأزمان
تاج الملوك وفخرهم فى دارم ... أيام يربوع مع الرعيان

وهى طويلة يقول فيها :

فاخسا اليك كليب ان مجاشعا ... وأبا الفوارس نهشلا أخوان
سبقوا أباك بكل أعلى تلعة ... فى المجد عند مواقف الركبان
قوم اذا خطرت عليك قرومهم ... ألفتك بين كلاكل وجران
واذا وضعت أباك فى ميزانهم ... رجحوا وشال أبوك فى الميزان

فقال جرير يرد حكومة الأخطل :

لمن الديار ببرقة الروحان ... اذ لا نبيع زماننا بزمان

وهى طويلة يقول فيها :

يا ذا الغباوة ان بشرا قد قضى ... ألا تجوز حكومة النشوان

فدعـوا الحكومة لستم من أهلها ان الحكـومة فى بنى شـيبان
قتلوا كليبكم بلقحـة جارهم يا خرز تغلب لسـتم بهجـان

ونقف هنا وقفة قصيرة لنضع يدنا على أمر له خطره وهو أن جريرا كان شاعر القيسية فاذا أراد بشر الأخطل والفرزدق لينهشا جريرا ففى ذلك اضعاف لشاعر القيسية وللقيسية نفسها المعادية للأمويين خاصة وانا نلحظ أن عدة الشعراء الذين كانوا على جرير كثرة لا تقاس بمن كانوا على الفرزدق بحال ففى أغلب الظن أن الأمويين كانت لهم أيضا اليـد الطولى فى تأليب كثرة من الشعراء على جرير الذى كان يذيع مفاخر قيس ويناضل عنها تغلب قبيلة الأخطل ودارم رهط الفرزدق .

ولما صار الحجاج من بعد بشر واليا للعراق تأثر طريق سلفه فهو يقول يوما لجرير والفرزدق وهو فى قصره بجـزيرة البصرة : أنتيـا فى لباس آبائكما فى الجاهلية فلبس الفرزدق الديباج والخز وقعد فى قبة وشاور جـرير دهاة بنى يربوع فقالوا له : ما لباس آبائنا الا الحديد فلبس جرير درعا وتقلد سيفا وأخذ رمحا وركب فرسا وأقبل فى أربعين فارسا من بنى يربوع وجاء الفرزدق فى فى هيئته فقال جرير :

لبست سـلاحى والفرزدق لمبة عليل وشاحا كرج وجلاجله
أعـدوا مع الحلى المـلاب فانما جرير لكم بعل وأنتم حـلائله !

بل وأكثر من هذا فهناك خبر لم يورده أبو الفرج فى الأغانى ولا ابن سلام فى الطبقات ولكنه على كل حال يصور كيف كانت الرغبة فى تهييج الخصومة بين المثلث : جرير والفرزدق والأخطل . أولا للغرض السياسى الذى بيناه وثانيا لمشاهدة ما ينجم عن عراكهم والتلذذ بذلك كما أن ناسا يتلذذون بمنظر الديكة حين يتقاتلون : يقول الرواة وينسبون ذلك لابن سلام : اجتمع جرير والفرزدق والأخطل فى مجلس عبد الملك بن مروان وقال لهم ليقل كل منكم بيتا فى مدح نفسه فأيكم غلب فله هذا الكيس وكان به خمسمائة دينار ؛ فقال الفرزدق :

أنا القطـران والشعراء جـربى وفى القطران للجربى شـفاء

وقال الأخطل :

فان تك زق زامـلة فانى أنا الطاعون ليس له دواء

وقال جرير :

أنا المـــوت الذى آتى عليكـــم فليس لهـــا رب منى نجاء

فقال له : خذ هذا الكيس فلعمرى ان الموت يأتى على كل شيء (١١٦) .

خاتمـــة :

تتلبث عند مواطن الاصالة فى فن جرير الأدبى نجدها فى موضعين غزله وهجاؤه وكلاهما مصدره وجدانه الصادق فالمجتمع حوله قست فيه الانسانية وتسلط القهر بالثروة والسيف مستندا الى دعاوى دينية وكان لابد أن يتغنى الانسان الحساس ، فأوى الى الجمال حسيا أو معنويا يجسمه الغزل ، وهكذا تصدق عاطفة جرير وترق اذا غنى للحب متغزلا أو رائيا .

وفى مجتمع العصر الذى لا يملك الانسان وسائل الصراع فيه ، فلا أقل من فلسفة الفطرة ، أو التعالى على المحنة بالسخرية والتهكم ، وما ظاهرة الاقذاع فى شعر جرير الا صدور عن نفسية سكيرتة اذ ملكت قست وعنفت . والى هذا كله فثمت أمارات للشكل الفنى الأصيل حيثما تنوعت الأغراض بشعر جرير . ويكفى أن النفس الشعرى عنده يطول اذا هجا ويقصر ان مدح تناغما مع عاطفته وتجاوبا مع صدقه الفنى .

---

(١١٦) الديوان ص ٧